

طاهــر أحمــد الزهــراني



جانجي

روايــة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طاهر أحمد الزهراني



رواية



جانجي

JANJI

By

Taher Ahmad al-Zahrani

First Published in March 2007

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-288-0

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٧

المحتويات

إهداء

إلى كل الشهداء الذين سقطوا في قلعة جانجي...

إلى كل الأحبة الذين نزفت دماؤهم العربية على تلك الأرض الأبية..

إلى بركات...

إلى فواز...

أهدي لكم جميعاً ذكرى أحداث لن تنسى!!

١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣م

في مواجهة انسداد آفاق العمل السياسي الشرعي برز العنف كمحاولة لاستعادة الحقوق، وشق طريق جديد، فدخلت المنطقة في حالة من الصدام الدموي، والعنف المتبادل، مما سبب نزيفاً سوف يؤدي إلى المزيد من التآكل والضعف والريبة المتبادلة!

عبدالرحمن منيف

شجون

شجن ١

قبل ثلاث سنين وفي مثل هذه الأيام كنت تسير أنت ورفاقك قاصدين قلعة جانجي الرهيبة فأثارت تلك المأساة في داخلي كثيراً من الأحزان فشعرت بأن أناملي تريد أن تكتب شيئاً!

* * *

أنت ورفاقك تقاتلون أعتى قوة في العالم، تقاتلون أميركا وحلفاءها المنافقين!!

أميركا التي أصبحت صنماً تعبده الحكومات تحاصركم في القلعة وتصبّ عليكم أطناناً من القذائف والقنابل العنقودية والصواريخ المضادة لكل شيء.. وعلى ماذا؟!

على زمرة من الـحُفاة العرب الذين شعروا بأنهم أمام مجموعة من الخيانات، خيانات محلية وخيانات عالمية!!

أميركا التي تخشاها كل الحكومات.. أميركا التي ترتجف من جيفارا وكاسترو والآن من بن لادن.. هي بذاتها تقاتلكم بكل ما أوتيت من قوة!!

* * *

أميركا التي أسقطت العراق في بضعة أيام لا تستطيع أن تسيطر على أفراد لجأوا إلى قلعة من الطين وقبو لا يتجاوز عمقة الخمسة مترات!

أميركا بكامل عدتها وعتادها تحاصركم سبعة أيام كاملة، وفي النهاية وعندما فشلت تطلب منكم الاستسلام لأنها عجزت عن تدميركم وعجزت أن تجبركم على السجود لها.

شجن٢

لم أتوقع أن الإنسان الذي كان يتجول معي في شوارع جدة الواسعة والضيقة من شارع التحلية إلى شارع بغداد ومن كوبري (المحنة)(*) إلى كوبري (المربع) ومن حي الروضة والخالدية إلى حي غليل والسبيل والهنداوية.. لم أتوقع أن تنتقل هذه النقلة الفظيعة، أفغانستان هكذا دون مقدمات!

الإنسان الذي لم يتعود أن يمسك قضيباً من الحديد

أصبح فيما بعد يمسك رشاشاً عيار ٧٠ لمواجهة أكبر قوة في العالم!!.

* * *

(*) سمّي بذلك لكثرة مطباته.

الشخص الذي كنت أعاكس معه الفتيات في مركز (المحمل) و(الكورنيش) لم يعد يقنعه فيما بعد إلا الحور العين!

* * *

الإنسان الذي لم يكن يتنازل أن يلج معي حارة المظلوم وحارة الشام والذي كان يتذمر من قدم مبانيها ويتأفف من ضيق أزقتها هو نفسه لم يتوقع أنه سوف يعيش في سجن قذر يسمى (شبرقان) في مزار شريف ثم ينتقل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب إلى كوبا والى قفص من أقفاص معتقل غوانتناموا!!

* * *

الشاب الأرستقراطي الذي لا يأكل إلا في مطاعم (فذر كرز) و(تشيلين) أصبح لا يتغذى الا على وجبة واحدة يومياً مكونة من معجون الفول السوداني!!

شجن ٣

لا أدري ماذا أسطر في هذه الصفحات البيضاء التي أمامي....

رحيلك المر

ليالي باكستان الطويلة.

أرض أفغانستان الملتهبة

قمم تورا بورا

١١ أيلول

سقوط أفغانستان والعراق

جحيم قلعة جانجي الرهيبة

سجن شبرقان

كوبا وخليج غوانتنامو

معسكر أشعة إكس

القفص الذي تعيش فيه الآن

الزاوية التي بالقفص.

عني أنا عن حيرتي وجنوني ولوثة عقلي..

* * *

لذا قررت أن أكتب عنك من البداية. عن شاب كان يوماً من الأيام صديقاً لي.

شجن أخير

أعلم أن البشر لم يتعودوا هذا النوع من الكتابة لأنهم اعتادوا الكتابة عن المرأة عن ليلى وعزة وجولييت وديانا ونانسي وشاكيرا!!

أصبح الكلام كله عن تقديس المرأة عن الشفاه والخدود والنهود وشعر العانة وشعر الإبط وعن البظر وعن أعمق من ذلك!!

أصبح العالم (سكسي) حتى الحضيض لدرجة أن من يقرأ بعض ما سأكتبه هنا سيظن أن مثلي شاذ (لوطي).. لماذا؟

لأن العالم أصبح قذراً قذراً لدرجة بعيدة!!

سوف أحاول أن أكتب شيئاً جديداً جميلاً بعض الشيء وسوف أتكلم عن المرأة!!

تناقض أليس كذلك؟!

ومن يعش في زمن مثل هذا الزمن ولا يشعر بأنه متناقض.. من؟

•
•
•

أتوقف. أتوقف أفضل لأني متوتر الآن!

قبل الرحيل

في المدرسة

هل تذكر عندما حضنتك أول مرة؟

كانت تلك الضمة قد سدت عدة ثغر في نفسك من دون أن أدري. لم أكن اعلم أن هناك نقصاً بداخلك، كنتَ بالفعل محتاجاً إلى صديق!!

شاء المولى أن يجمعنا معاً في آخر سنة في الثانوية. لا زلت أتذكر أيام الدراسة... تمر علي أوجه كثيرة لكن لا أذكر أسماءها... كانت بالحق أياماً رائعة.. كنت في وقتها أراقبك عندها لم نكن قد عرفنا بعضنا.. ما أعرفه عنك أن لك شبيهاً عندنا في المدرسة.. لم أكن أعلم أننا سنلتقي في آخر سنةٍ لنا... ناهيك أن نجلس بجوار بعضنا على مقاعد الدراسة... بدأت السنة الدراسية وتغيرت ملامحك قليلاً ولم يتغير هندامك.. الثوب النظيف و(الشماغ)

المكوي. يومان.. ثلاثة أيام.. علمت أنك إنسان رائع بالفعل. كنت تنصحني بعدم النوم أثناء الحصة والمعلم يشرح الدرس. كنت أفاجأ عندما أراك جالساً بكل ثقة متوجهاً ناحية المعلم وأنت تغط في نوم عميق. كنت أضحك بشدة عليك يا رفيقي. عندها لم أستطع أن أصبر عن ضمك بشدة... لأنك إنسان (عبيط) ومثالي في نفس الوقت!!

بعد هذه الضمة أرسلت لي رسالة لا أستحي من ذكرها هنا ليعلم البشر تلك الصداقة التي أصبحت حقاً شيئاً نادراً!!

قلت فيها:

«إن الإنسان في هذه الدنيا يحب أن يكون له خليل وصديق ورفيق حتى يخرج له ما في نفسه من الهموم.. ولا يزال الإنسان يبحث عن ذلك الصديق الوفي الذي يكن له الحب والوفاء.. وعند التعايش مع ذلك الإنسان فإنك تعرف شخصيته هل فعلاً يصلح أن يكون صديقاً أم لا؟

هذه مقدمه أحببت أن أقدم بها حتى أوضح لك الموضوع.

أخي الحبيب.. حياتي في سطور:

خالد كان يبحث وبشغف عن ذلك الصديق الذي يسايره في هذه الدنيا، وكما تعلم كنت أعاني أشياء نفسيه جراء ذلك النقص الذي كان يعتريني. دخلت المدرسة ولا زلت أبحث عن صديق ولم يحالفني الحظ.

(أكيد إنت بتقول إيش السالفه.. أقول اصبر معي شويه)

مع مرور الزمن وجدت الصديق الذي كنت أبحث عنه، وكنت قبل ذلك أشعر بالحسد عندما أرى بعض الصداقات هنا وهناك وأنا محروم من صداقة جميلة على وجه هذا الكون المليء بالكائنات.

والله يا عزيزي لا أستطيع أن أكمل هذه الرسالة لأن العبرة تخنقني الآن..

أمس القريب لم أكن أعرفك ولم تكن تعرفني. عندما عرفتك عرفت معك كثيراً من المصطلحات التي كنت أسمع بها ولم أشعر بطعمها (الصداقة، الأخوة، الإيثار، التضحية) ثم أصبحت بعد أن عرفتك أتكلم كثيراً عن تلك الكلمات.

أخي الحبيب:

ليس الصديق هو الذي يغضب علي إذا انفلتت كلمة من لساني من غير قصد، وليس صديقاً من يفكر في نفسه دائماً (أناني) إنما الصداقة وفاء للماضي والحاضر والمستقبل.

أكتب هذه الكلمات وأنا لا أستطيع أن أصف لك ما في داخلي.. الذي بداخلي شيء فظيع عن هذا الموضوع.

إعلم أني عندما آتيك إلى المنزل لا آتي إلا لأني قد وجدت أمراً يضايقني في منزلي. عزيزي لا تتضايق من كثرة زياراتي لك وكثرة السؤال عنك خاصة عندما أراك مهموماً وحزيناً فإني أتضايق عندما أراك متضايق، أحس بك لا تقل أني عاطفي زيادة أو مغرق في العاطفة.

لماذا آتي إليك؟ لأني أحس أني غريب في هذه الدنيا فأذهب إليك

لتسليني وأبث إليك همومي.

دموعي تتساقط الآن. إن صداقتي لك صادقة صدقني.

إن هذه المشاعر صادرة من إنسان يحبك ويحب لك الخير»

صديقك المخلص دوماً خالد القرشي

١٩٩٩م

الأصنج

بعد ذلك دعوتني إلى تناول طعام العشاء في أحد مطاعم الوجبات السريعة المشهورة، كان المكان جميلاً وأنيقاً مما شجعني على الأكل بشره جنوني خانق.. حتى إني لم اعد أميز بين الأشياء. ضحكت عليّ بشدة عندما ظننتُ أن الصنبور يعمل بمجرد ان أضع يدي تحته. كنت تذكر لي أشياء عن الصداقة الرائعة النادرة في زماننا.

لم أكن أعلم أنك في ذلك الحين تخرج من صدرك كلاماً لم يخرج من قبل، كنت تتكلم عن أخيك الصغير كأن البشر ليس لديهم إخوة صغار ولكن عرفت فيما بعد أن أخاك الصغير هو الإنسان الوحيد الذي تستطيع أن تضمه إلى صدرك في أي وقت وحين!!

* * *

بعد أيام دعوتك إلى وجبة الإفطار في أقذر بقعه عندنا بالمنطقة! بعد الفجر انطلقنا معاً إلى (الكرنتينا). أدخلتك تلك الأزقة المظلمة الرطبة من آثار مياه الصرف الصحي.

كدت أن تجن عندما سقط عليك أحد الصراصير المجنّحة في مهمة انتحارية عبث بثوبك ونشر غازاته السامة على ملابسك. كنت أضحك عليك عندما كنت تنفض ملابس كما كنت تضحك علي عندما وضعت يدي تحت الصنبور.

بعد العراك سلكنا عدة أزقة داكنة وآثار الرطوبة والطحالب على جدرانها. ثم وجدنا مدخلاً قد نزع منه الباب ووضع مكانه قطعة قماش قديمة ذات ألوان عديدة (مصنف)[*]، نزلنا عبر سرداب مظلم جداً.

كنتُ أعلم أنك كنت خائفاً جداً في تلك اللحظة، كانت رائحة الجمر تفوح من المكان بشدة.

عندما وصلنا للأسفل أشعلت النور... وكان العجوز نائماً على كرسيه بجوار جرة الفول. كان يرتدي الفوطة ويلبس فنيلة ماركة (أبو بقرة) ويلف عمامته الداكنة على رأسه واضعاً على طرف أذنه اليمنى سماعته التي اصفرت مع مرور الزمن. كان يشكو من ضعفٍ في سمعه لذا سمي (الأصنج) وفوله (فول الأصنج)!!

اقتربت من أذن العجوز وبدأت أهمس فيها وأنت مندهش من ذلك المنظر العجيب. كنت أهمس في أذنه:

(*) إزار يلبسه أهل الجنوب ذو ألوان متعددة.

ـ عم حسن. عم حسن صحنين فول من يدك الحلوة.

* * *

بدأ العجور يشعر بأن أحداً قد اقترب منه.

ـ هاه.. إيش..

ـ صحنين فول.

ـ كم يا ولدي؟

ـ صحنين صحنين فول ياعم حسن (بصوت عال).

* * *

كان عمر ذلك المكان ما يقارب أربعين عاماً. المكان هو المكان. لم يتغير شيء سوى (الناموسية) فقط، لوحه قديمة مائلة على أحد الجدران كتب عليها (إذا خلص التميز والفول الأصنج غير مسؤول) أركانه لم يزل بها أحفاد العنكبوت الجد، الكراسي الخشبية العتيقة الطاولات الحديدية المتسخة.

كان يحضِّر الفول على الفحم ولا يرضى بأسطوانة الغاز بديلاً عن الفحم رغم ارتفاع سعره ودنو سعر الغاز. كل شيء هنا كما هو قبل أربعين سنة، فصاحبه يعتبر كل تغيير في محله خيانة للماضي العريق!!

هبط الصحنان على الطاولة.

ـ تسلم يدك يا عم حسن، الله يزوجك!!! (بصوت عال).

ــ آمين آمين بس صوتك عالي.

ــ بس إنت كبرت في السن يا عم حسن.. وما تنفع للزواج.

ــ يا واد إنت ما تعرف.. عمك حسن جبل. كنت زمان أتعب. أم حمزة الله يرحمها استحملتني كتير.

ــ دا كان زمان يا عم حسن.

ــ إخس عليك يا واد، إنت دوّر لي وحدة أجيب ولدين في سنة وحده أنا..

ــ يا هوو.. جبل يا عم حسن!

ــ مو قضية جبل ولا غيره، (النيـ...) فن ومو كل واحد (ينـ...) صح.

كنت تسد أذنيك من صوتي المرتفع ومن بعض الكلمات السوقية التي كنا نثيرها أثناء حديثنا.

كنت تنظر إلى المكان باشمئزاز وتستغرب من اندفاعي الشره لصحن الفول. سألتني وكانت تعلوك ابتسامه غاضبه:

ــ لماذا تقصد هذا المكان القذر؟

ــ لأنه خبرة وقديم كما ترى.

ــ قديم قديم (صح).

مسحت السمن البلدي السائل من ذقني ثم قلت:

ـ قديمك نديمك ولو الجديد أغناك.

ـ قديمك نديمك أم أنك سقطت في غرام إحدى الوافدات السمر هنا؟!؟ أو بالبلدي (طبيت على وحدة تكرونية).

عندما قلت ذلك توقفت لقمه كبيرة في حلقي فذهبت إلى (الترمس البرتقالي) على الطاولة الأخرى وشربت من فم (الترمس) مباشرة بعد أن أزحت الذباب عنه. كنت تضحك عليّ بشدة من ذلك الموقف، شربت وشربت وشربت حتى ذهبت اللقمة أدراجها، ثم رجعت إليك بعد أن عادت إليّ نفسي وقلت لك:

ـ أنتم أصحاب الوجبات السريعة لا يعجبكم الأكل البلدي الأصيل.

ـ طيب يا أصيل إنت!

ـ انتهيت أم لا؟

ـ انتهيت منذ أن دخلت هذا المكان!.

خرجنا بعد أن أشرقت الشمس على تلك المنازل المتحاشرة، لم يكن في الشارع غير قط عجوز وبعض الصراصير هنا وهناك، كنت تعبر الأزقة وترفع ثوبك حتى لا تصله مياة الصرف الصحي، لم تكن هناك أبواب للمنازل، مجرد قطع من الأقمشة والشراشف حتى أننا سمعنا تأوهات ممارسي الجنس من خلفها، كانت زجاجات العرق الفارغة تملأ المكان ورائحتها تجلب الصداع النصفي.. ثم خرجنا من ذلك المكان وأوصلتك إلى منزلك ثم قلت لي:

ـ يا عزيزي إذا أردت أن تسمع نصيحتي فلا تذهب إلى تلك الأماكن المشبوهة.

* * *

هل تعلم يا عزيزي أني لم أذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى.. ليس لشيء إلا أني بذلك أتذكر أيامنا الحلوة التي قضيناها معاً في تلك الأزقة.

شارع الحب

لا أدري أتذكر أم لا؟ عندما سرنا بأحد شوارع (قويزة) وقلت لك:

ــ حاول ألا تمر بهذا الشارع مرة أخرى.

ــ لماذا؟

ــ أشعر أن قلبي يكاد أن يطير من مكانه.

ــ وأنا مثلك.

نظرت إليك بدهشه وقلت لك:

ــ غير معقول؟ هل لديك صديقه هنا في هذا الشارع..

ــ نعم!

ــ مستحيل.. لا أصدق.

ــ صدق أو لا تصدق.

ــ إذا كان ما تقول صحيحاً فهذا والله من عجائب القدر فعلاً.

ــ أنا لا أكذب وأستطيع أن أثبت لك.

ــ أتحداك.. أنت تسخر مني فقط.

ــ وإذا أثبتّ لك ذلك.

ــ عليّ العشاء.

ــ لا.. لا أريد العشاء أريد أن تثبت لي أن لك صديقة!!

ــ أثبت لك؟!!

ــ هل لك صلة قرابه بها؟

ــ لا

ــ وأنت؟

ــ إنها ابنة عمي..

ــ رائع جميل.

ــ إن فتاتي من بعيد. من بعيد جداً تفصل بيننا عوائق كثيرة جداً. البعد الجغرافي. البعد الاجتماعي. البعد الاقتصادي وجميع أبعاد الدنيا. لكن الذي يجمعنا هو الحب.

ـ أرجوك.. أرجوك يا دون جوان. أرجوك لا تبكيني. أرجوك أيها العاشق النبيل لا تكدر خاطري. يا عزيزي إن الحب لا يعترف بالأبعاد مهما كانت.

ـ ...

ـ عش معها الواقع وأمزجه بالخيال وعطّره بالأمل.

ـ الأمل.

ـ نعم الأمل، أجمل شيء في الكون الأمل.

انحرفت بسيارتك الحمراء إلى نفس الشارع. أوقفت سيارتك أمام منزل عمك، طرقت الباب بلا تردد وخرج والدها مستغرباً من زيارتك. كنت وقحاً عندما سألته عن ابنته. كنت أسمعك وأنا في السيارة، رجعت إلي وقد تورد خداك من الحياءُ بابتسامة خبيثة قلت لي:

ـ ما رأيك في هذه الجرأة؟ هل سمعتني عندما قلت له كيف حال عزيزة..؟ لقد تغير وجه عمي..

ـ وقاحة!!!

ـ وقاحة أم غير ذلك، سمها ما شئت. هيا.. الآن دورك أين منزل صديقتك؟

ـ يا عزيزي خالد، يبدو أن العشاء هو البديل الأفضل لنا. ما رأيك أن نتعشى معاً فالساعة تشير إلى الحادية عشرة الآن.. الوقت متأخر؟!

ــ أين المنزل؟ بسرعة قبل أن أفكر بالعنف؟

ــ هاه..

ــ بسرعة إلى الموقع. أين الموقع؟

ــ أعلى الشارع.

ذهبنا إلى منزلها. كانت غرفتها هي الغرفة الوحيدة المضاءة. قلت لك:

ــ هذه هي غرفتها. أنظر، ما زالت مستيقظة. يبدوا أنها تكتب لي رسالة!

ــ أثبت لي، هذا لا يكفي..

ــ هذا كله لا يكفي؟

ــ نادها.

ــ مجنون.. أنت بلا شك مجنون.

ــ لا تضيّع الوقت هيا.

في ذلك الحين كان لا بد أن ألفت انتباهها فلم أجد شيئاً، فكرت أن أرمي النافذة بحجر صغير ولكن خشيت أن أكسر الزجاج، عندها خطرت لي فكرة جريئة.. صعدت إلى سيارتك وأخذت مجموعة من العلك وبدأت أمضغه حتى أصبح العلك بحجم حبة البندق. أخرجت العلك من فمي وهو مليء باللعاب ثم وضعته بيدي لكي أكوره بشكل أفضل... ثم رميت به زجاج نافذتها

فالتصقت بالزجاج وتناثر اللعاب على سطح الزجاج. كنتَ تنظر لي بدهشة مستغرباً من ذلك الفعل المشين.

فجأة تحركت ستائر النافذة. لم تظهر لنا الفتاة بل أخوها.. صرخ فينا:

ــ لماذا رميت النافذة يا (ابن الكلب) إذا كنت رجل انتظر..

ركبنا السيارة ثم انطلقنا بسرعة الريح. لم نقطع مسافة طويلة وإذا بسيارة (سوبر بان) سوداء تلاحقنا بسرعة جنونية. لقد كان أخا الفتاة!!

قلت لك حينها:

ــ أسرع أسرع.. توجه إلى (أبرق الرغامة[*])... بسرعة.

ــ مجنون!

ــ أنت من أتى بالجنون.

توجهت بنا إلى (أبرق الرغامة) وهو لا يزال يلاحقنا فقلت لك:

ــ أطفئ النوار وادخل أقرب (زريبة) غنم.

ــ أصلاً غلطان من يصاحبك.

فعلاً دخلنا (زريبة) الغنم ومر بجوارنا ولم يكتشفنا، ثم ضحكنا

(*) مكان أناخ به الملك عبدالعزيز رحمه الله وجيشه عندما أراد دخول جدة.

كثيراً فقد كانت مغامرة مثيرة تلك الليلة!!.

...

هل تعلم يا عزيزي أني تقدمت بعد ذلك إلى أهل صديقتي ووافقوا مبدئياً.. ولكن المصيبة أن فتاتك لا تزال تنتظرك!؟!

هدايا

بعد تلك السنة افترقنا.. أنت دخلت كلية إعداد المعلمين وأنا دخلت الجامعة. ولم يزدنا الفراق إلا قرباً ومودة. في تلك الأيام ذهبتَ إلى السوق لشراء بعض الملابس الجديدة استعداداً للكلية وجلبت لي مثل أغراضك بعد أن لفيته بورق (السولفان). عندما جلبت هذه الأغراض لي أحرجتني بشدة لأنها كلفت مبلغاً كبيراً وأرى أني لا أستحق كل هذا الاهتمام الزائد منك.

عندها قلت لك:

ـ ما هذا؟

ـ هدية بسيطة.. لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فأنا أحب لك ما أحبه لنفسي.

ـ لماذا كل هذه الملابس؟ إني لا أستعمل هذا النوع من الملابس

ولا يلق بي.. أتعبت نفسك فقط.

ــ ...

كان السكوت كل ما تملك في ذلك الموقف المزلزل بالنسبه لك، لم أتصور أني قمت بشيء يجرحك. ذهبت إلى المنزل أفتح السلفان الشفاف، لقد كانت فعلاً ماركات عالمية فاخرة ـ كما هي عادتك السيئة ــ.

وبينما أنا أقلب تلك الهدايا.. رن الهاتف. رفعت السماعة، لم أسمع شيئاً سوى بكائك. صدمت. وقتها علمت أني اقترفت خطأ ما.

ــ خير إن شاء الله.

ــ ...

ــ مالحكاية؟

قلت لي بصوت متقطع:

ــ قوية قوية!

ــ من القوية؟

ــ كلماتك التي لا تحسب لها حساباً، أتعب نفسي لكي أسعدك وأدخل السرور إلى قلبك وأنت تحطمني. ماذا سينقص منك إذا قلت إنها جيدة على أقل تقدير لماذا تبخل علي بإظهار سعادتك..؟!

ـ أنا..

ـ لا تبرر فعلك! أنت جافٍ ولا تقدر لصداقة شيئاً.

أقفلت السماعة في وجهي.

عندها علمت أني قد ارتكبت خطأ فظيعاً جداً في حق صديقي.. ذهبت إلى منزلك مباشرة. كانت العَبرة تخنقني لا لشيء إلا أني لا أستحق صداقتك.

عندما خرجت لي كنت هادئاً وكأن شيئاً لم يكن، لم أستطع أن أملك أعصابي في تلك اللحظة فقبلتك وحضنتك بكل قوة وأنا أبكي بحرارة وأقول لك:

ـ أنا لا أستحق.. أنا لا أستحق كل هذا.

حاولت أن.. حاولت أن تنزع يدي لترى وجهي ولكنني لم أرض بغير ضمك لأكفّر عن خطئي. وبعد أن هدأت كنت تحاول أن تنظر إلى وجهي وأنا أصرفه عنك حتى لا ترى وجهي المحمر الباكي. كنت تقول:

ـ إنك تستحق.. تستحق لأنك فعلاً صديقي!!

الآن وأنا أكتب هذه الأسطر لا أستطيع أن أسيطر على دموعي المتمردة.

* * *

في اليوم التالي أهديت لك أغلى ما أملكه في ذلك الحين.. لوحتي

(التيه) التي استغرقت في رسمها شهوراً.. كانت أعز شيء أملكه ولم أكن أهدي أعمالي لأي إنسان لأنها جزء مني!

كانت من أنفس أعمالي لكنك تستحقها.. تستحقها لأنك حقاً أروع صديق لي في هذا الكون!!

بلا وداع

لا أدري هل كانت خيانة مني للصداقة عندما بدأ الحب يأخذني إليها متنقلاً من طور الصداقة الهادئ إلى زوبعة الحب الجارف. أشعر بأني فعلاً قد قصّرت معك.

وأنت أيضاً تنبأت بذلك عندما استخدمتُ (الموبايل) الخاص بك ووجدت رقمها به فنظرت إليّ وقلت:

ـ ما هذا الرقم؟!

ـ شخص عزيز.

ـ يا ماكر إني أشم منه رائحة أنثى!!!

...

أنت أيضاً بدأت تتغير، فزياراتك قلّت واتصالاتك قد انحصرت

ربما وقعت في مثل ما وقعت به. لا أدري.. ربما؟!

...

لعلك تذكر آخر لقاءٍ بيننا.. أتيت إليّ تطلب مني جهاز التسجيل الصغير. في تلك الأيام بدأت أشعر بأنك تغيرت.. أصبحت تفكر في أشياء بعيدة عن مدارك فكري.

...

شُغلت بفتاتي وشعرت بشيء اسمه الحب. عرفت معنى أن يجرب الإنسان طعم الحب، وعرفت أنه حين يحب المرء تكف الأرض عن الدوران كما قال نزار قباني!!

...

بعد أيام شاهدت فتاتي لأول مرة.. نظرت إليها ونظرت إليّ. كدت أن أجن. بحثت عنك فلم أجدك. كنت أتصل على هاتفك المحمول عدة مرات من غير جواب.

أسأل عنك هنا وهناك ولم أجد من يشفيني بجواب، أريد أن أسوق إليك أجمل لحظة في حياتي فأنا سعيد.. بل في قمة السعادة!!!

أنت تقول أنك في قمة السعادة عندما تراني. سعيد أنا الآن. أحس بنشوة الحب والسعادة في آنٍ واحد!

أين أنت؟ إلى أين ذهبت. قد تكون تبحث عني كما أبحث عنك، ربما لديك خبر جميل ولهذا تبحث عني.

ذهبت أبحث عنك في جميع الأماكن التي كنا نذهب إليها. ذهبت إلى الجبل الصغير الذي كنا نتناول فيه طعامنا..

ذهبت إلى الشاطئ الجنوبي المهجور..

ذهبت إلى شارعنا المحبوب..

ذهبت إلى أماكن الصيد..

ذهبت إلى كل مكان فلم أجدك. ذهبت إلى الأماكن التي أحبها لعلي أجدك تبحث عني هناك، ذهبت إلى قهوة (باب شريف) و(برحة العيدروس) وقهوة (الفيشاوي) وحدائق ميدان (البيعة). وحتى أختصر الطريق قفزت من فوق سور مقبرة (أمنا حوى) ومررت من بين القبور وتسلقت السور مرة أخرى وخرجت قاصداً العم أحمد صاحب سندوتشات الكبدة ولم أجدك!

شعرت بأن أمراً حدث لك.. عندها ذهبت إلى منزلك، توجهت إلى نافذتك، كنت أهمس باسمك ولكن لم تجب. طرقت النافذة ولم تجب. زاد ضربي لها، كنت أطرقها بكلتا يدي وبكل بقوة. كان الزجاج يتطاير من ضرباتي لها لأني كنت أشعر أنه قد أصابك مكروه...

وأنا أقول:

ـ أرجوك افتح. أرجوك..

خرج أخوك بعد أن سمع بكائي بالخارج. كان يبكي أيضاً. جن جنوني؟ أخذت بتلابيب ثوبه وهززته بقوة وانا أبكي..

ـ أين صديقي؟ أين رفيقي.. أين هو..؟

ـ ...

ـ لماذا لا تتكلم... يا أحمق تكلم!

ـ ...

ـ تكلم..

ـ ...

كان يبكي.. يبكي. صرخت به:

ـ تكلم يا.. تكلم.

عندها صرخ في وجهي باكياً مردداً:

ـ لقد رحل. لقد رحل. صديقك رحل. ألا تسمع؟ صديقك رحل.. رحل.. رحاااااال....

سقطت على الأرض باكياً أقلب الثرى، أضرب الأرض بيدي بكل قوة. أضرب... أضرب.... أضرب... حتى انهارت قواي وفضلت البكاء.... ولا شي ء غير البكاء!

أخذ أخوك يبكي ويواسيني وأنا أتمتم وهو يبكي لحالي ويقول:

ـ لا تبك.. لا تبك أرجوك!!.

وأنا أتمتم بصوت متقطع مبحوح:

ـ أردت.. أردت

ـ ...

ـ أردت...

قال وهو يحاول أن يسيطر على دموعه:

ـ أردت ماذا يا عزيزي؟

ـ أردت أن أقول له..

ـ تقول له ماذا؟

ـ أقول له إنها رائعة!!!

جحيم جانجي

هذا الفصل..

لم أستطع أن أكتب فيه إلا الأحداث فقط لأني كلما أحاول أن أتصور تلك المأساة أشعر بأن قلمي يتوقف عن الكتابة وأفكاري تتجمد ومشاعري تجيش وتتخبط في متاهات لا أستطع أن أخرج منها ولا أستطيع أن أجسدها على وجه الورقة البيضاء!.

لذا سامحني يا من تقرأ السطور عن عجز بياني في هذا الفصل وهذا إن دل على شيء فيدل على أن قلمي يعاني العجز والأمية في آن واحد!!.

(خواجا غار)

لا يزال القصف مستمراً على القرى والمدن الأفغانية، فالطائرات تقذف بالقنابل بجميع أنواعها من دون أي هوادة أو رحمة، لا تراعي شيئاً.. هل ما تقصفه هدفاً أم غير ذلك. ولكن المقصود واضح وهو التخريب والإرهاب بكل معانيه. بيوتات الطين البسيطة أصبحت حفراً عميقة تتصاعد منها ألسنة اللهب الحارقة، وقطعان الماشية تتقافز هنا وهناك وكأن جنوناً آخر حل بها.. وصيحات الأطفال وبكاء النسوة يولّد في النفوس كل الأحقاد والكراهية للعدو الغاشم.

* * *

كان خالد القرشي وزياد السيد يشعران بأن المنطقة محاصرة بشدة، لكن بالرغم من ذلك بإمكانهما الخروج من هذا الجحيم. هذا ما توصلا إليه. عندها قال زياد:

ـ لا بد أن هذا هو الوقت المناسب لنخرج من هذه الزوبعة.

رد خالد بكل هدوء: انتظر فمن المجازفة أن نخرج وحدنا، علينا أن ننضمّ إلى الجماعة، إني أفضل الموت مع الجماعة...

قال زياد بكل يأس:

ـ إذاً نموت.. نموت... بلا شك.

* * *

كان كل أهالي منطقة (خواجا غار) مجتمعين في مساء تلك الليلة يتحدثون عن وضعهم المؤسف. وبعد طول نقاش ولهيب مجادلات توصلوا إلى قرار ناجع وهو أن يخرج من المنطقة كل الرجال وخاصة الشباب ولا يبقى في المنطقة إلا الشيوخ والنساء والأطفال، وبهذا سيتضح للعدو أن المنطقة خالية من المقاومين. عند ذلك سيصرفون النظر عنهم وبهذا ترتاح المنطقة من ذلك القصف الهمجي المرعب وفي الوقت نفسه يخرج الشباب ليقاوموا في منطقة (قندز). وفعلاً خرج الشباب وتفرقوا جماعات وكل جماعة تقرر مصيرها.

كانت مجموعة خالد مكونة من ثلاثة أشخاص غيره وهم زياد وياسين وياسر، وقد قرروا أن يذهبوا إلى جهة أخرى غير (قندز).

* * *

كانت الطريق وعرة جداً. يكفي أن نظرة واحدة من أعلى تلك

الجبال الشاهقة إلى الهاوية تلقي من الرعب ما الله به عليم. لم يكن لدى خالد ومجموعته جهة معينه يقصدونها سوى المجهول الذي ينتظرهم، وفي الطريق حدث لخالد ومجموعته موقف مرعب جعل الموازين تختلف جداً وجعل زياد وخالد يعيدان النظر في مسألة الالتحاق بالأخوة في (قندز)...

فبعد أن قطع الأربعة مسافة طويلة جداً على تلك القمم الشاهقة كان ياسين متعباً جداً حيث قلة النوم وكذلك قلة الزاد ووعورة الطريق جعلته يتأخر كثيراً عن رفاقه... وبينما هم يسيرون في طريقهم وإذا بصوت ياسين يتردد صداه في الأرجاء. تنبه خالد للصوت فرجعوا يبحثون عنه ولم يجدوه.. لكن الصوت استمر. بحث زياد وياسر هنا وهناك ولكن دون جدوى فليس هناك إلا الصوت فقط.. أخذ ياسر يطل من سفح الجبل وإذا به يفاجأ بسقوط ياسين ولكنه لا يزال ممسكاً بجذع شجرة على سفح الجبل.. وقد كان قريباً أيضاً. عندها فك ياسر عمامته وربطها بيده وأرخاها له ولكنها كانت قصيرة، عندها ربط العمامة بقدمه فأنزلها فأمسك ياسين بها وأصبح معلقاً بين السماء والأرض لا يربطه بها إلا قطعه من القماش بينما الهاوية فاتحة فمها مكشرة عن أنيابها الصخرية!!.

لم يستطع ياسين التسلق لشدة الإعياء الذي أصابه، وكذلك بدأت قوى ياسر تتلاشى شيئاً فشيئاً أمام تلك القوة التي تدفعه إلى الهاوية.. في اللحظات الأخيرة شاهد زياد ياسر على شفا الهاوية فنادى بصوت عال أن يثبت حتى يأتي. كان زياد وخالد يركضان بسرعة لمساندة ياسر في إنقاذ ياسين ولكن قبل أن يمد زياد يده بخطوات سقط ياسين ساحباً معه ياسر الذي ضحى بحياته لإنقاذ رفيقه:

ذلك المشهد كانت مدته ثواني معدودة لكنه ترك بصماته على جدارن الذاكرة إلى الأبد...

هذا الموقف وضع خالد وزياد أمام أحد قرارين.. إما المواصلة نحو المجهول وإما الانضمام إلى الشباب في (قندز) للبحث عن مأوى آمن لهم..

* * *

اتجه خالد وزياد إلى (قندز) والصمت من هول الفاجعة يربط لسانيهما. وفي المساء بدأ الثلج يتساقط عليهما فلجآ إلى أحد الكهوف وأوقدا هناك النار. كان خالد ينظر إلى الشحوب الذي كسا وجه زياد وكان زياداً ينظر إلى تلك النار شارد الذهن.. عندها خاطبه خالد:

ـ هل أنت بخير؟

ـ ...

ـ زياد هل أنت بخير؟

ـ لقد كانت عيناه تودعني برعب. عيناه تودعني بألم.. لا أنسى صيحته التي دوت في أرجاء قلبي لا أزال أسمع صداها إلى الآن!!.

كانت الدموع تملأ عينيه وهو يتحدث عن تلك المأساه. أخذ خالد يخفف عنه ويذكره بأن الله لن يضيع أجرهما.

ناما رغم البرد الشديد وضجيج الطائرات.. وفي آخر الليل استيقظ

خالد لأن زياد بدأ يهذي أثناء نومه. وضع خالد يده على جبينه وفعلاً كانت حرارته مرتفعه جداً نتيجة الإرهاق والجوع الشديد والحوادث المؤلمة التي واجهتهما.

غطى خالد صديقه بردائه ثم خرج لجلب بعض الحطب لإشعال النار وتدفئة المكان. كان الثلج يغطي كل شيء تماماً فأخذ وقتاً طويلاً حتى تجمع بعض قطع الخشب.

رجع خالد إلى الكهف واطمأن إلى حالة زياد، لكن حرارته ما زالت مرتفعة!.

أخذ يغفو ويستيقظ أمام تلك النار بينما الفجر أخذ يطلق أشعته على الكون بكل هدوء..

* * *

خرج خالد بعد ان أدى صلاة الفجر ليبحث عن مساعدة. نزل إلى أحد الأودية ولكن لم يجد سوى أصوات الدبابات والمجنزرات التابعة للعدو.

رجع خالد أدراجه يفكر في وضعه البائس هو وزياد.. وفجأة وبينما هو يقطع الوادي إذا بحمار يتجول في الوادي. اقترب منه ووجد عليه خُرجاً. اقترب منه. فتش الخرج ووجد به خبزاً ساخناً كأنه خرج لتوه من التنور وفي الجنب الآخر غالوناً من الماء الصافي البارد..

خرّ خالد ساجداً لله ثم أخذ الخبز والماء وتوجه فوراً إلى زياد الذي كان عرقه يتفصد من جبينه. استبشر خالد خيراً فهذه من علامات

زوال الحمى.. بدأ خالد يطعم زياد من الخبز وزياد يأكل بشره شديد أخذ بعدها جرعة من الماء ثم نام نومة طويلة.

* * *

فتح زياد عينه ورأى خالد بجواره. خاطبه خالد مازحاً:

ــ إن لم تنهض الآن فسوف أتركك هنا فريسة للذئاب! هيا انهض فقد ذهبت الحمى عنك.

رد زياد ببطء:

ــ أشعر بفتور وصداع شديد!

ــ هذه من آثار الحمى. دعنا نذهب من هذا المكان فقد مللت.

ــ صداع فظيع.. آه

ــ هيا قم.

* * *

أكملا المسير رغم شدة البرد.. وبدأ خالد يسرد ما حصل معه أثناء مرضه وكيف ساق الله لهما ذلك الحمار. استغرب زياد وظن أن خالد يستخف به فقال بسخرية:

ــ يبدو أن هذا الحمار يحسن الطيران.. لهذا أتانا الخبز ساخناً..!!

فردّ عليه قائلاً:

ـ لا ألومك الآن.. لأن آثار الحمى لا زالت بك...

ضحك زياد بشدة واستمر في الضحك.. ثم قال:

ـ لماذا لم تأخذ هذا الحمار حتى نقلع على متنه إلى بر الأمان؟!

لم يردّ خالد. اكتفى بابتسامة فقط.. ولما زادت سخرية زياد رد عليه قائلاً:

ـ اشكر الله ثم اشكر هذا الحمار الذي أنقذك من الموت يا مسكين!

ـ أريد ان أشكره ولكن يبدو أنه توجه الآن إلى بانكوك أو أدغال أفريقيا.

تعالت الضحكات.. وغابت شمس ذلك اليوم وظلت سخرية زياد هي حديث الركب الممتع. وباتا تلك الليلة في أحد الخنادق على الطريق المؤدية إلى (قندز).

* * *

لم يذوقا طعماً للنوم لأزيز الطائرات المزعج في سماء المنطقة. استيقظ خالد وأيقظ زياداً وتيمما ثم أديا صلاة الفجر وأكملا المسير. كان البرد يضربهما بقسوة وخاصة زياد، مما دفع خالد لنزع ردائه وإعطائه إياه. لم ينطق زياد بكلمة واحدة وذلك لما كان يشعر به من شدة البرد.

بدأت الشمس تنشر أشعتها بعد ساعة متأخرة من النهار، ذلك لأن

المنطقة جبلية مرتفعة.

سلكا أحد الأودية وكان يفصل بينهما وبين الطريق المهجورة إحدى الهضاب البسيطة. اشتد الجوع على زياد مما دفعه لأكل بعض الأعشاب الصغيرة وبعض الطين العالق بها، فيما كان خالد يتحمّل الجوع لأن بنيته كانت ضخمة وأقوى من بنية زياد. نام زياد بعد تلك الوجبة المطينة واخذ التعب من خالد مأخذه مما جعلهما ينامان تحت إحدى الصخور.

* * *

بدأت الشمس في الزوال وأيقظ خالداً وزياداً صوت عربة تسلك الطريق المهجورة. ثم صعدا إحدى تلك التلال لرؤية الوضع عن كثب ولأخذ الحيطة لأنها قد تكون إحدى عربات العدو!

شاهدا العربة من بعيد وكانت عبارة عن شاحنة نقل حمراء صغيرة (لوري). بادر زياد بالسؤال:

ــ لماذا تأتي من هذا الطريق الوعر؟

ــ ربما يريدون القبض على الشباب الذين يقصدون (قندز)..

ــ لكن لماذا جاءوا وحدهم؟! أليس من المفترض أن يأتوا في مروحية.. غريب!!!

كانت العربة تتوجه ناحيتهما. خفضا رأسيهما وحاولا أن يتعرفا على قائد العربة. بدأت الملامح تتضح لهما شيئاً فشيئاً. قال زياد:

ــ إنه يلبس عمامة بيضاء.

وقال خالد:

ـ يبدو أن بجواره أحداً.

كانت العربة التي بها شخصان تمر من أمامهم تماماً.. فجأة صرخ زياد وطار من مكانه:

ـ غريب! إنه غريب.

صرخ خالد بأعلى صوته:

ـ غريب.. غريب.

انحدرا من أعلى تلك الهضبة وصرخا في صاحب العربة، ثم بدأت العربة تخفف من سرعتها حتى توقفت تماماً.

نزل من العربة الأخ غريب الصنعاني ونجم الدين التركماني ولم يصدقا أعينهما عندما رأيا خالداً وزياداً يركضان نحوهما أخذ بعضهم بعضاً بالأحضان وامتلأت الأعين بدموع الفرح بلقاء الأحبة.

* * *

ركب نجم الدين في حوض الشاحنة وركب خالد وزياد بجوار غريب نظراً لما لحقهما من تعب أثناء رحلتهما الشاقة.. ثم أكمل غريب البحث عن شباب آخرين.

كانت المنطقه وعرة جداً والشمس بدأت رحلتها إلى المغيب، لذا قرر غريب ورفاقه العوده إلى (قندز).

قال غريب لخالد:

ـ لماذا تأخرتم؟ نحن وصلنا (قندز) يوم أمس.

رد زياد عليه بحزن شديد:

ـ إنها قصة طويلة محزنة ومؤلمة!

وبدأ زياد وخالد يسردان القصة منذ انطلاقهم من (خواجا غار) إلى أن تم لقاؤهم، وما حدث لرفيقيهم اللذين تردّيا من تلك الجبال الشاهقة.

قال غريب:

ـ شيء محزن فعلاً!

قال خالد:

ـ وأنت ما حدث لك يا غريب وكيف وصلتم لنا؟

رد غريب:

ـ توجهنا فوراً إلى (قندز) ولكن قبل أن نصل ضللنا الطريق.. كنا ستة منهم نجم الدين وسمير الصنعاني وبعض الأخوة من قطر وسوريا. انقطعت بنا السبل وكدنا نموت من الجوع والعطش حتى ساق الله لنا حماراً يحمل ماءً بارداً ورغيفاً ساخناً و..

صرخ خالد بأعلى صوته:

ـ الله أكبر! هل سمعت يا زياد؟ سمعت الحقيقة.

ــ ثم قال:

ــ وأنا أيضاً يا غريب حدث معي الشيء نفسه ولم يصدقني زياد.

سكت زياد من هول المفاجأة وانعقد لسانه من دهشة ما سمعه من غريب ولم يجد ما يقوله غير:

ــ وأين الحمار الآن يا غريب؟

ــ رد عليه خالد ساخراً:

ــ في بانكوك!!.

ثم قال خالد:

ــ وماذا فعلتم بعد ذلك يا غريب؟

ــ أكلنا وشربنا ثم أكملنا سيرنا إلى أن وجدنا أحد الرعاة ودلنا على (قندز) فوصلنا آخر الليل. وقابلنا الأخوه هناك ثم نمنا ليلتنا، وعند الظهيرة أخذنا هذه العربة أنا ونجم لنبحث عن بقية الشباب والحمد لله أنتم أول من عثرنا عليهم.

ــ الحمد لله.

ــ الحمد لله.

(قندز)

وصلوا قبل حلول الظلام إلى (قندز) وانضموا إلى بقية العرب الذين تجمعوا هناك. لجأ زياد وخالد وغريب الصنعاني إلى دار حبيب الرحمن الهراتي الذي استقبلهم بالسرور والبشر ورحب بقدومهم وأكرمهم. وبعد أن تناولوا العشاء أخلد الجميع للنوم، وفي الصباح استيقظ الجميع على صراخ حبيب الذي كان يتجول في السوق ورأى بعض الأميركان ومعهم بعض الأفغان يبحثون عن العرب فما كان منه إلا أن توجه لمنزله لكي يخبر الجميع أن المنطقة تحت التفتيش. أيقظ حبيب زياداً وخالداً وأدخلهما أحد المخازن في المنزل وخرج تاركاً مهمة مواجهة فرق التفتيش لزوجته. وفعلاً عندما انتصف النهار كان مجموعة من الجنود تقرع الباب، ففتحت زوجة حبيب الباب فأخذ الضابط يوجه الكلام للمترجم الأفغاني العميل بأن يستفسر عن بعض العرب قال المترجم العميل:

ـ هل لديكم عرب؟

ـ لا

ـ أين زوجك؟

ـ في محله.

ـ وماذا يعمل؟

ـ نجار.

ـ إذا كان لديكم أي خبر عن بعض العرب فسوف تنالون مكافأة على ذلك...

ـ لا نعلم عن العرب شيئاً ولا نريد منكم شيئاً!!

* * *

عندما أزفت الشمس على المغيب رجع حبيب إلى منزله وأخبرته زوجته عما جرى، فأخرج زياداً وخالداً وغريباً من المخزن وأخبرهم أن المكان ليس بآمن.

وفعلاً خرج الجميع ملتحفين الظلام للتوجه إلى إحدى الدور الآمنة لقضاء تلك الليلة وبعد ذلك ينتظرون الصبح القريب لمناقشة وضعهم مع أعيان المنطقة. لم تمض تلك الليلة على خير لأن القوات الأميركية قصفت المنطقة بالقنابل ضاغطة على السكان أن يخرجوا من كان عندهم من العرب. وفي الصباح ألقيت المنشورات من الطائرات تحث السكان على التعاون مع القوات

الأميركية. وكان هذا نص المنشورات: (نحن الأميركان لا نريدكم يا أفغان فقط نحن نريد العرب فإذا أخرجتم العرب فأنتم أصدقاؤنا).

ورغم ذلك لم تنجح السبل مع أهالي (قندز) فاستمر الأميركان في القصف.

* * *

بعد ثلاثة أيام وبعد صلاة العشاء توجه الجميع أفغاناً وعرباً إلى دار الشيخ سراج الدين لمناقشة وضع الشباب العرب إذ إنهم المقصودون من القوات الأميركية، اجتمع الشباب في دار الشيخ سراج الدين وأنضمّ إليهم بعض أعيان المنطقة لمناقشة الوضع.

بدأ الشيخ سراج بمقدمة حمد الله فيها وأثنى عليه وصلى على المصطفى صلى الله عليه وسلم وأورد نصوصاً من الكتاب والسنة تبين فضل الصبر والمصابرة والنصرة التي بين المؤمنين، ثم بيّن سبب اجتماعهم وبين رغبة العرب في مغادرة المنطقة ومعهم بعض الأزبك والباكستانيين وبعض الجنسيات الأخرى. وكالعادة المعروفة دائماً في مثل هذه الاجتماعات علت الأصوات موضحة أن الأفغان لن يتنازلوا عن العرب وسوف يدافعون عنهم إلى آخر قطرة من دمائهم، بينما كان يتكلم عن العرب (أبو عبدالرحمن النجدي) الذي قال إنه من المصلحة أن يخرجوا من المنطقة مراعاة لأحوال النساء والرجال والشيوخ وسوف تكون وجهتهم (مزار شريف) إذا وافق (رستم)، وتمسك أبو عبدالرحمن النجدي بكلمته وأذعن له الجميع.

* * *

في اليوم التالي، وكان يوم جمعة، وقبيل المغرب كان الجميع متوجهاً إلى (مزار شريف) مشياً على الأقدام، بعد أن تمت المفاوضات مع (رستم) بشرطين. الأول: أن تُسلَّم له (قندز) وتكون تحت إمرته، والثاني: أن يدخل الجميع (مزار شريف) بغير سلاح خوفاً من أن يحدث عليه انقلاب بعد أن سيطرِ هو على المدينة.

* * *

سار الشباب العرب ومعهم بعض الأوزبك والباكستان والأفغان إلى (مزار شريف) ومن ثم إلى أي مدينة أخرى لكي يتسنى لهم الرجوع إلى أوطانهم. وكانت مجموعة خالد مكونة من ثلاثة أفراد زياد وسعيد الجنوبي وأبو معاذ الليبي، سار الجميع بقيادة أبو معاذ الليبي ولم يكن معهم الا أسلحة بسيطة تحميهم من وحشة الطريق. وبعد منتصف الليل توقف الجميع قليلاً وأشعلوا النار للتدفئة ثم قال الجنوبي لأبي معاذ:

ــ هل أنت مقتنع بما نفعله؟

ــ ماذا تقصد؟

ــ أقصد هل أنت مطمئن للتعاقد مع رستم الشيوعي هذا؟

ــ لا أدري.. أشعر بعدم ارتياح له، لكن هذا هو آخر ما توصلنا إليه.

ــ لكنه إنسان خبيث وله مواقف سوداء لا تخفى عليك..

ــ علينا السمع والطاعة فقط.. هل لديك حل آخر؟

ــ كل شيء ما عدا التعاقد مع هذا الطاغية الشيوعي!

ـ قضي الأمر، و«لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

ـ اللهم سلّم سلّم..

نهض الجميع بعد أن أخذوا قسطاً من الراحه ثم أكملوا المسيرة إلى (مزار شريف).

(مزار شريف)

في ساعة متأخرة من الليل وصل الجميع إلى مشارف (مزار شريف) والتقت كل المجموعات هناك وأصبحت تحت لواء واحد وأمير واحد هو عبدالسلام الحضرمي أحد الذين شاركوا في الجهاد الأفغاني ضد السوفيات.

بعد الفجر ذهب أبو حفص عبدالسلام الحضرمي أمير العرب للتفاوض مع رستم حول العبور من المدينة. وكان معه بعض الأسلحة الخفيفة لكن رستم رفض وأصر على موقفه وهو أن يدخلوا المدينة بغير سلاح البتة، وبالطريقة التي يراها هو.

استمر التفاوض مع رستم من بعد الفجر وحتى الظهر.. وأخيراً وافق أبو حفص على شروط رستم خوفاً من أن يقطع عليهم الطريق الذي سوف يكون ممراً للآلاف من العرب والطلبة فوافق!.

لم يكن (الجنوبي) مطمئناً لـ (رستم) وجنوده، لذا حث بعض زملائه على أن يحملوا بعض القنابل ويخفونها خوفاً من الخيانة وقد سمع بعض الأخوة العرب والأوزبك كلامه وعملوا بنصيحته. كان كل من زياد وخالد ينصاعان للأوامر دون نقاش. أتت الشاحنات الخاصة بأفراد رستم وبدأ الشباب العرب يصعدون في تلك الشاحنات ثم التوجه إلى (مزار شريف). عندما دخلوا المدينة كان (الجنوبي) ينظر إلى أوجه القوم الماكرة وهي تنظر بازدراء وابتسامات الشماتة تلوح على تلك الوجوه الخائنة. لكن الجنوبي لم يرد أن يشق عصا الطاعة ورضي أن يتابع فصول هذه الخيانة على مضض، وعندما رأى جنود رستم يحاصرونهم من كل الجهات ومن فوق قمم التلال أصبح الشك يقيناً أنهم سوف يصبحون ضحية خيانة نكراء من رستم.

في تلك اللحظة كان رستم ينظر بمنظاره إلى الشاحنات وهي تحمل الأفغان العرب وهو فرح بانتصاراته الخبيثة التي حققها.. فقد أصبحت (قندز) وقبلها (مزار شريف) بيده والآن تأتيه الغنيمة الباردة من العرب المساكين بعد أن تآمر مع القوات الأميركية وذلك لتسليم العرب لهم.. وسوف ينال الملايين من الدولارات الخضراء على تلك الفعلة الشنيعة التي يسيل لها لعاب الكثير من الخونة العابثين!!!

قلعة الـمـوت

وقفت الشاحنات عند بوابات القلعة الرهيبة (جانجي)[*] وبدأ أفراد رستم في إدخال (٥٢٣) شاباً إلى القلعة بعد أن قاموا بتفتيش بعضهم لكي يظهروا لهم أنه مجرد أمر روتيني بسيط.

كان الاتفاق مع (رستم) أن يدعهم يعبرون (مزار شريف) على شكل مجموعات صغيرة ثم يتوجهوا إلى هرات ومن هرات سوف يجدون للرّحيل إلى أوطانهم عشرات الطرق الآمنة.

حتى تلك اللحظة لم يعلم كثير من العرب أن القضية هي (خيانة في خيانة) واستمر الوضع على تلك الصيغة وهي أن يتم إدخالهم إلى غرف مظلمة أسفل القلعة من دون أن يعلم أحد نية رستم الفاسدة!!!

(*) كلمة جانجي أو جانكِ تعني القتال.

اليوم الأول:

غربت شمس ذلك اليوم بعد أن تم إدخال العرب ذلك القبو الذي ازداد ظلمة على ظلمته.

غرق القبو في الظلام الدامس وبدأت الأصوات الخائفة والمطمئنة والغاضبة والراضية تختلط اختلاطاً فريداً لم تجتمع إطلاقاً إلا في قبو تلك القلعة قلعة الموت:

ــ اسم الأخ؟

ــ خالد القرشي.

ــ وأنت؟

ــ فارس.. من البحرين

ــ أنا وزياد السيد من السعودية.

ـ من زياد؟

ـ صديقي الذي بجواري.

ـ عذراً لم أنتبه لأن المكان مظلم جداً.

رد زياد:

ـ لا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر.

ـ فرج الله قريب.

رد خالد:

ـ أسأل الله أن يكشف عنا.

ـ هل أتيتم للتدريب؟

ـ لا ..

ـ لأي شيء جئت إذاً؟!

ـ سياحة.. سياحة من نوع آخر.

ـ وأنت؟

ـ أنا أتيت للتدريب.. وأراد الله لنا الخير. لذا علينا أن نحتسب كل حركاتنا عند الله، فإذا أصابنا شيء فلن يضيع الله عملنا بإذن الله.

ـ صدقت.

* * *

مرت ساعات الليل الأولى.. وفضل زياد أن ينام على أن ينتظر. لكن ذلك الانفجار المفزع كان كفيلاً بترويع الجميع، كان الانفجار قريباً جداً وكان سببه إحدى القنابل التي بحوزة البعض وأسفر ذلك عن موت (حكيم التعزي) وقد كان شاباً في العشرين من عمره أسمر اللون نحيل الجسم. مات مباشرة وأصيب من حوله ببعض الشظايا، ما إن سمع جنود رستم الانفجار حتى جاؤوا بمصابيحهم وقالوا:

ـ لا تقتلوا أنفسكم. بيننا وبينكم عهد على أن نخرجكم في الصباح الباكر.

اليوم الثاني:

في الصباح سمع الشباب أصوات الأبواب تفتح فعرفوا أنهم سوف يخرجون من هذا الدهليز الموحش. لكن الجنود بينوا أنهم سوف يخرجون اثنين اثنين وهكذا حتى يخرجوا جميعاً. كان الجنود يفتشون الخارجين تفتيشاً خفيفاً ثم يأخذونهم بكل احترام إلى الخارج حيث لا يعلم الشباب ماذا يحدث لإخوانهم؟ لم يعلم الذين في القبو ماذا يحل بإخوانهم في الخارج، فقد كان يخرج الشاب في ساحة القلعة وينقض عليه خمسة من جنود (رستم) ويجردونه من ملابسه ولا يبقون إلا السروال الداخلي فقط ثم يضربونه ضرباً مبرحاً ويوجعونه ضرباً ثم يشدون وثاقه ويرمون به في الساحة! وهكذا استمر الوضع حتى بلغ عدد المقيدين في الساحة ٣٢٢ شخصاً. وفي الساعة التاسعة علم بعض الأوزبك الذين لم يدخلوا القلعة بأن هناك خيانة عظمى تدور على إخوانهم العرب فما كان منهم الا إطلاق النار على جنود رستم الذين في الساحة وسقط منهم كثير من القتلى فانزاحوا إلى الجهة الغربية من

القلعة، وما إن سمع الذين في القبو صوت الرصاص حتى علموا أن هناك مواجهة وخيانة قد حدثت. فخرج بعض الشباب الذين معهم قنابل ومنهم (الجنوبي) إلى الساحة. وكانت الصدمة شديدة جداً عندما رأوا إخوانهم مقيدين في الساحة وكان الأوزبك مسيطرين على الجهة الشرقية، زحف الشباب الذين كانوا في القبو لكي يفكوا قيود إخوانهم الذين في الساحة، وبعد دقائق معدودة أصبحت الساحة تمطر بوابل من الرصاص حتى لو أن أحدهم رفع رأسه لاستقرت رصاصات في رأسه. فقد كان الرصاص كالنهر من فوق رؤوسهم. وفعلاً استطاعت مجموعة من الشباب فك القيود من بعض إخوانهم وما كان من بعضهم الا الانقضاض على بعض الجنود بعد أن أخذوا أسلحة المقتولين منهم. وعندما رأى جنود رستم بعض العرب قد نهضوا من الساحة انهالوا عليهم بوابل من الطلقات مات فيها وجدي وطلحه المكي وأبو العطاء اليمني وكثير من العرب الأفغان الشجعان.

استمرت المعركة بين الأوزبك وجنود رستم.. ورغم أن هؤلاء يملكون أسلحة كثيرة وعدداً لا يحصى من الأسلحة الثقيلة فإن الأبطال الأوزبكيين جعلوهم يتراجعون فأصبح الجزء الأكبر من القلعة والقبو تحت سيطرة العرب والأوزبك.

ثم كشف أحد الأفغان أن القبو مليء ببعض الذخائر والأسلحة من أيام طالبان، وفعلاً وجدوا أسلحة وذخائر ومدافع هاون تكفيهم لمدة شهر للقتال.. ولم يعلم بها (رستم) لأنه شغل عن هذه القلعة بالأحداث.

أصبح الشباب يملكون عدداً كبير من الأسلحة وخاصة الـ R.B.G وكثيراً من الكلاشنكوف وذخائر مكومة كالجبال.

استمر القتال بين الطرفين إلى وقت طويل.. ثم سمعت أصوات الطائرات الأميركية! ذلك أن رستم طلب العون من الأميركان لأن الموقف لم يعد يسيطر عليه، وبمجرد أن سمع الشباب العرب والأوزبك أصوات الطائرات حتى علموا أن هناك قصفاً سوف يقصدهم فتحصنوا في أماكن جيدة وتوارى بعضهم خلف الأشجار وبدأت حرب من نوع آخر، وهو ما يسمى حرب الجبناء الذين يكتفون بالتفوق الجوي وليس لديهم جرأة في المواجهة.

قصفت الطائرات المكان بالقنابل الحارقة والعنقودية. وبعد ذلك حاول أفراد (رستم) التقدم ولكن كان الشباب لهم بالمرصاد حتى ردوهم خائبين.

* * *

حل الظلام وتوقف إطلاق النار وتم نقل الجرحى إلى القبو. كانت الحال مأساوية لأبعد التصورات، فكثير من الجرحى استمر ينزف حتى الموت وبعضهم اكتفى بتضميد الجرح ببعض الخرق البالية والتعب أخذ مأخذه والجميع مفتقرٌ لأبسط الأمور، حتى الماء لا يتوفر لديهم ناهيك عن الطعام والعلاج، مما جعل رائحة المكان تفوح بالدم والأجساد المحترقة جراء القنابل.

* * *

لم يجد الشباب الماء فتيمموا وصلوا صلاة المغرب والعشاء جمعاً وقصراً. بعد ذلك تم تقسيم الشباب إلى مجموعات وتولى القيادة الأخ عبدالعزيز النعمان وأصبح هو القائد لتلك المجموعات، وانضم إليه زياد بعد أن اقتنع أنه إما أن يقتل وهو ذليل في القبو أو أن

يصلح نيته ويحارب مع إخوانه، فإن انتصر كان ذلك شرفاً له وعزة وإن قتل قتل شهيداً وانضم إلى قافلة الأبرار.. وإما أن يمكث في هذا القبو المظلم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فإن هذا هو النفاق والذل الذي لا يرضاه أحد. صحيح أنه لم يأت إلى أفغانستان للحرب بل أتته الحرب وهو في أفغانستان، ولكن لا مناص من أحد أمرين.. إما أن يموت كما يموت الحيوان وإما يجاهد الظلمة والخونة والمحتلين وينال إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

بينما قرر خالد أن يكتفي بمعالجة إخوانه المصابين والمرضى.

في تلك الليلة حاول بعض أفراد رستم الدخول إلى القلعة.. لكن الذين في الحراسة كانوا لهم بالمرصاد.

اليوم الثالث:

تم فيه إطلاق النار من الجهتين. وقد حاول جنود رستم التقدم كعادتهم لأنهم ظنوا أن القوم قد ضعفوا وأنهكوا.. لكن الأمر بخلاف ذلك فقد كان العرب والذين معهم في أوج حماستهم وقوتهم ومعنوياتهم عالية لولا حاجتهم لبعض الضرورات كالماء والطعام والعلاج ولكن القوة متوفرة فالسلاح والسواعد والهمم كلها تتوحد لقتال الخونة والمحتلين.

* * *

بعد منتصف الليل قرر غريب أن يداهم الناحية التي بها العدو، وفعلاً تسلل هو وأبو الوليد التركماني بعد أن جهز كلّ منهما سلاحه. وضع غريب حربةً على رأس رشاشه الكلاشن وبدأ في الزحف في الساحة التي كانت مليئة بالأشلاء الممزقة والدماء العربية الكريمة. وقد رأى غريب أثناء زحفه في الساحة صديقه

العزيز أبو مريم الحلبي وهو مسجى على الأرض وبعض الأتربة تملأ عينية وأنفه وتحت حاجبة الأيمن أثر بعض الطلقات النارية الغائرة في رأسه. تأمل غريب صديقه أبو مريم، قبّل رأس صديقه ونزلت منه دمعه حارة كانت دافعاً للتقدم ومواجهة العدو اللعين.

وصل غريب وأبو الوليد إلى المكان المتفق عليه وبدآ في تسلق الحاجز ثم غابا عن الأنظار.

كان المكان تحت الحراسة المشددة، قررا التراجع وبمجرد أن تسلقا الحاجز مرة أخرى عائدين أدراجهما رأى بعض جنود رستم غريباً يتسلق الجدار فأطلقوا النار عليه وعلى أبو الوليد وسقط أبو الوليد على الأرض بينما غريب لحقته بعض الرصاصات في فخذه فسقط أسفل الجدار من الناحية التي تلي رفاقة، فعرف الرفاق أن زملاءهم وقعوا وكشف أمرهم. لم ير الأعداء غريباً لأنه كان أسفل الجدار القريب منهم، استمر تبادل النار بين الطرفين إلى ساعة متأخرة نزف خلاله غريب حتى أسلم الروح إلى باريها، وقبل ذلك أبو الوليد، وجرح كثير من العرب والأوزبك وحملوا إلى القبو الذي أصبح قبراً أكثر من كونه قبواً للنجاة!!

اليوم الرابع:

أصبح الوضع حرجاً جداً فقد كثر الجرحى والقتلى وغيرهم يشكون من الجوع والإعياء الشديد. خرج بعض الشباب من القبو يبحثون عن أي شيء يسد جوعتهم وجوعة إخوانهم الجرحى في القبو خرج خالد ومعه أخ مغربي لكي يبحثا عن بعض الثمار من تلك الأشجار التي تحول بينهم وبين العدو. ومن حسن حظهما أنهما وجدا فرساً مقتولة بالجوار فأخذا يقطعان بعض أجزائها ثم يحملانها إلى الداخل وهكذا حتى لم يبق من الفرس إلا بعض الأجزاء غير المرغوبة.

أشعلوا النار في القبو وبدأوا يشوون اللحم ويوزعونه على بعضهم، فأكل الجميع رغم وجود بعض العفن فيه لأن الجوع لم يعد يميز بين العفن وغير العفن في ذلك الوقت وفي تلك المحنة الشديدة التي نالت من الجميع.

ذلك اليوم لم يكن فيه تبادل لإطلاق النار رغم تهيؤ الشباب العرب لأي عملية أو مكيدة. في تلك الليلة نام الجميع بعد أن تناولوا تلك الوجبة العفنة، فقد أهلكهم التعب والجوع ولم يبق إلا زياد وبعض الشباب الشجعان لحراسة الباقين.

اليوم الخامس:

مر اليوم بسلام وهدوء، لكن ذلك الهدوء تخوف منه العرب وشعروا بأن هناك أمراً يحاك ضدهم. وتأهب الكثير من الشباب للمواجهة ومرت ساعات النهار ولم يحدث شيء. وفي المساء وقبيل المغرب أقبل فوج من طائرات الأباتشي وكونت صفاً أفقياً وبدأت تطلق الصواريخ على القلعة وتقصف كل معالمها فقتل الكثير من الشباب وأصيب زياد إصابة بالغة. دخل الجميع إلى القبو واستمر القصف قرابة الساعة، كان الشباب يسمعون القصف وكأنه فوق رؤوسهم، فوجئ خالد بإصابة زياد وأخذ يضمد جروحه الغائرة، فالجانب الأيسر منه قد أصيب بعدة شظايا أخطرها ما كان في رقبته. حاول جاهداً أن يوقف النزيف ولكن اتسع الشق على الرقع. كان زياد يتألم ويبتسم ويغمى عليه بين يدي خالد الذي كان يهوّن عليه الإصابة.

ـ زياد.. لا تخف، الإصابة خفيفة.

ـ إذا خرجنا من هنا سوف أحملك إلى أقرب مستشفى، صدقني..

ـ خالد..

ـ نعم.

ـ شجع الشباب أيقظ العزائم فيهم.

ـ لا تخف إن الله معنا.

ـ الله معنا.

ـ نعم الله معنا.

ـ الله.

ـ زياد..

ـ يا الله..

ـ زياد.. أتشعر بشيء؟

في تلك اللحظة التي لم يجاوب فيها زياد عرف خالد أنه سيفقد صديقه العزيز وسيبقى وحيداً، كان خالد يضم زياداً ويبكي ويقول له:

ـ زياد أرجوك لا تتركني هنا. أرجوك.

ـ أرجوك يا زياد اصبر.. لا تتركني.

ـ الله معنا.

ــ تكلم يا زياد، لا تتوقف تكلم بأي شيء.

ــ.........

ــ قل شيئاً أرجوك.

ــ لا

ــ هاه

ــ لا إله الا الله..

ــ أرجوك زياد..

كانت كلمة التوحيد هي آخر كلمة نطقها زياد بين يدي خالد الذي لم يصدق رحيل صديقه الوحيد الذي طالما كان يسليه ويصبّره وينصحه.

توقف القصف بموت زياد السيد.. واجتمع الشباب في ذلك القبو المظلم بين ذاكرٍ ومتأوه من جراحه. واستمر الوضع حرجاً إلى الفجر.

اليوم السادس:

في الصباح استيقظ الجميع على أصوات القنابل داخل القبو، فقد أخذ أفراد رستم يلقون بالقنابل من الفتحات التي في أعلى القبو ونجم عن فعلتهم الشنعاء إصابة العديد ممن كانوا تحت هذه الفتحات، وقد تناثرت أجزاء من اللحم والدماء في كل مكان، وأصوات الجرحى يفزع أكثر من اصوات القنابل. واستمر الجبناء من أفراد رستم في إلقاء القنابل حتى أصبحت أصوات القنابل هي الأصل في ذلك المكان. لجأ جنود رستم إلى سكب البنزين والكاز في القبو ثم إشعال النار فيه حتى يختنق من فيه ويستسلموا، اندفع الشباب إلى إطفاء الحريق بملابسهم وعمائمهم ولكن الدخان كان شديداً مما جعل الدخان ينتشر انتشاراً مفزعاً في القبو. أخذ الجميع يتلثم لكي لا يختنقوا والبعض كان يضع العمامة على أنفه ثم يضعها على أنف أخيه الجريح الذي ليس لديه ما يغطي به وجهه ليدفع عنه الدخان الذي أخذ يخنق الكثير. مات بعض الجرحى من هذا الفعل غير الإنساني، وبعد الزوال أخذ أفراد رستم ينادون كل

من في القبو إلى الاستسلام فلا مجال للمقاومة بتاتاً. انتظر أفراد رستم من بعيد لكي يعلن من في القبو استسلامهم ولكن لم يخرج أحد بتاتاً. ثم فكروا في طريقة اخرى أشد وأعتى من الطرق السابقة.

* * *

أخذ التعب والجوع والدخان الأسود يَسود في الداخل وانقلبت الجدران سوداء وكذلك أصبحت وجوه الموجودين داخله مائلة إلى السواد من جراء ذلك الدخان اللعين الذي لوث ظواهرهم ودواخلهم ودماءهم.

أخذ خالد يرفع رشاشه ويصبِّر الجميع ويبين لهم أن الشوكة التي يُشاكها المؤمن يكون له فيها أجر فكيف بالقتال في سبيل الله ومواجهة الأعداء، وأن موتهم شهادة وحياتهم نصرة وعزة. وأنه لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم.. وأن النصر والتأييد بيد الله ثم تلا: ﴿واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصرة ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ أخذ يتلو الأحاديث والآيات وهو يبكي وبكى الجميع وتأثروا. وختم كلامه بقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. فردد الجميع بصوت واحد وهم جرحى وهلكى ويائسون وعاجزون: حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل ثم أكمل: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ اصبروا فلا زالت العزة لنا ولا زال النصر حليفنا ولا نقول

للعدو الا ما قاله الشاعر(*):

لا تهيئ كفني ما متّ بعد

لم يزل في أضلعي برق ورعد

أنا إسلامي أنا عزته

أنا خيل الله نحو نصر الله تعدو

أنا تاريخي ألا تعرفه

خالد ينبض في روحي وسعد..

كان خالد يقول:

ـ إن حياتنا واحدة في هذه الدنيا وموتنا واحدة إذاً لتكن في سبيل الله، ولا بد من أن نبتلى في هذه الحياة الدنيا فليكن ابتلاؤنا في لقاء أعداء الله.

ثم شعر بأن صوته بدأ يختفي شيئاً فشيئاً، لذا أوكل المهمة إلى أبو شادي المقدسي الذي حث الجميع على الثبات والصبر على أقدار الله.

* * *

لم يعد جنود رستم لفعل أي عمل ضد العرب الذين أخلدوا للنوم بعد ساعة متأخرة من الليل.

(*) غازي بن عبدالرحمن القصيبي

اليوم السابع:

الساعة الثالثة عصراً، عندما رأى رستم وجنوده أن محاولتهم لم تنجح بالأمس لجأوا إلى استخدام المياه فبدأ الجنود بغمر القبو بالمياه، فظن الذين في القبو أنه سوف يتم صعقهم بالكهرباء. واستمروا في دفق المياه حتى وصلت إلى الركب ولم تأت الكهرباء. في الحقيقة لم يكن جنود رستم يفكرون بالكهرباء إطلاقاً بل كان تفكيرهم في أن يغمر القبو بالماء حتى يغرق الجميع أو يخرجوا منه، وفعلاً كان أول الغرقى هم المصابين الذين أصبحت جثثهم وجثث من مات قبلهم تطفو على ذلك الماء الذي وصل إلى صدور الجميع، كان أحد الجرحى، وهو ابو حبيب، يشعر بالموت تدريجياً ويكرر:

ـ أين سكرات الموت؟ أين سكرات الموت؟

فسقط من شدة الإعياء ومات غريقاً وشهيداً، ولم يصبح واقفاً غير

الذين ظلوا قادرين على التحمل والوقوف رغم التعب والجوع وبرودة المياه وشدة الموقف وألم فقد الأحبة والإخوان. وصل الماء إلى الصدور ثم توقف وأصبح الجميع واقفين ينتظرون مصيرهم. كان خالد القرشي يبصر جثة صديقة ورفيق دربه زياد السيد وهي طافية على الماء وابتسامة باهتة مرتسمة على محياه المحروق. كان يرى تلك الجثث التي أصبحت تصطدم ببعضها البعض وقد سارت أرواحهم إلى عالم آخر لا يعلم تفاصيله أحد. مياه باردة متعكرة بالسواد والدماء وعليها بقع الزيت والحريق وجثث هنا وهناك.. وقلة من الشباب الذين بقوا في ذلك القبو المظلم في تلك الساعة المتأخرة من الليل. كان خالد يتذكر جموع إخوانه عندما دخلوا القلعة وكيف أنها بدأت تقل شيئاً فشيئاً. فأناس ماتوا في المواجهة الأولى مع أفراد رستم عندما علموا الخيانة وآخرون ماتوا عند الاشتباكات مع الأعداء وغيرهم في خط الدفاع وكثير عند القصف الأميركي لهم.. وها هو يرى إخوانه في هذا القبو يلاقون ألواناً من الموت خنقاً بالدخان وغرقاً بالمياه وموتاً من الجوع.

كانت كل هذه الصور تدور في خلد خالد وهو يرتجف من البرد والمياه تغمره إلى ترقوته بعد أن أسند ظهره إلى أحد الجدران المحترقة.

لم يستطع خالد أن يتحرك من مكانه لأن بعض الجثث كانت على الأرض فخشى أن تطأ قدمه على أحدهم.

في هذا الوضع الحرج وفي هذا الحال الحرجة لم يشعر خالد بنفسه فنام واقفاً؟!

اليوم الأخير ١٧رمضان ١٤٢٢هـ:

في الصباح وبعد أن طلعت الشمس ودخلت بعض أشعتها إلى القبو، سمع الجميع أصوات المكبرات وهي تحث كل من كان في القبو على الاستسلام. في تلك اللحظة نظر خالد إلى إخوانه ولم يعودوا يملكون عدة ولا عتاداً وأصبح الموت هو مصيرهم المحتوم. قال:

ـ أيها الأخوه لم يعد في القوس منزع ولا نستطع أن نقاوم أكثر من هذا، لذا أرى أن نستسلم مرعاة لأحوال إخواننا ولأن المصلحة تقتضي ذلك.

نظر إلى أوجه إخوانه ولم يلق رداً منهم، لكن أحدهم قال:

ـ أموت ولا أسلم نفسي لهؤلاء الخونة لأنهم سوف يسلموننا للخواجات، الموت أفضل لي من أن أكون أسيراً عند هؤلاء الكفرة.

رد خالد:

ــ لكن لم يعد لدينا قوة في المواجهة، والأسلحة تعطلت من أثر المياه وليس لدينا ذخيرة كافية.

ارتفعت الأصوات بين مؤيد ومعارض.. وأخيراً قال محمد التعزي أبو فراس:

ــ أنا أرى أن نصوّت والأغلبية هي الغالبة.

استحسن الجميع رأي أبو فراس وكان شبه إجماع على الاستسلام لأن المصلحة في ذلك الوقت تقتضي ذلك.

عند ذاك أخذ خالد عمامته وربطها بفم الكلاشنكوف وقرر الجميع أن يعطوا الإشارة بالاستسلام.. وفعلاً فقد صعد خالد إلى إحدى الفتحات التي كان الماء يخر منها وقام برفع رشاشه إلى الأعلى وأخذ يشير بعمامته إلى العدو كعلامة استسلام.

... وبدأ يحركها وأخذ البعض يبكي لهذه النهاية المحزنة وهذا الاستسلام المؤلم.

* * *

ما إن رأى العدو تلك الإشارة حتى أقبلوا إلى مصدرها، ثم أقبلت بعد ذلك بعض الآليات لحفر المكان وخرج العرب الذين أتوا من كل الأصقاع لنصرة إخوانهم في كل مكان، ومن بينهم خرج شاب أميركي أشقر ذو لحية كثة يدعى (عبد الحميد جون) وكان لظهوره بين العرب صدمة كبيرة للضباط الأميركان!!

أخذوا يخرجون من ذلك القبو وهم يعانون ألم الهزيمة وألم الخيانة التي لاقوها وأليم الخذلان الذي ملأ قلوب من يدّعون الإسلام!

نجا (٤٢) شاباً فقط من تلك الملحمة وخرجوا مستسلمين ثم.. خرج خالد من القبو وأحاط به عدد من الجنود، مد بصره في تلك الأرض فرأى آثار تلك القلعة التي كانت رمزاً للصمود قد استوت بالأرض. تلك القلعة التي كانت الدبابة تسير على جدرانها من سماكتها وضخامتها.. أصبحت قاعاً صفصفاً. كل شيء تغير، بل ظن بعض من خرج أنهم على أرضٍ أخرى غير تلك التي رأوها من قبل.

* * *

عصبت الأعين ووضعت الأصفاد في الأيدي والأرجل وسيق أولئك الذين عانوا محنة وشدة لم يسبق لأحد أن عايشها وذاق أليم محنتها.. سيقوا إلى أين؟ لا أحد يعلم!.

* * *

أخذ الجندي الأميركي يضع عصابة سوداء على عيني خالد خاتماً بها تلك الأيام السبعة التي رأى فيها أموراً لم يرها من هو في السبعين من عمره. سبعة أيام حوت مأساة لن تمحى من ذاكرته أبداً ما دام حياً: سبعة أيام أم سبع سنين لا فرق بينهما عند خالد الذي رضخ لذلك الجندي الأميركي الذي أخذ في وضع ذلك السواد على عينيه بينما أحد الأفغان من جنود رستم يضع السلاسل في أقدامة ويديه، وما فُعل بخالد فعل ببقية أخوانه الذين كانوا معه، ثم ساروا وراء بعضهم مكبلين بالأغلال والأصفاد

الثقيلة نحو تلك الشاحنة والجنود يحيطون بهم مصوبين رشاشاتهم نحوهم،حتى دخل آخرهم وأغلقت أبواب الشاحنة بعد أن امتلأت.

الوجوه فاحمة من أثر الدخان والقنابل، والشعور مغبرة والدماء متيبسة على الأجساد والملابس الممزقة ونظرات قاتمة ومصير مجهول وشاحنة تسير ويموج من فيها، بدأ الغبار يتطاير من تحت عجلات الشاحنة وانطلقت خلفها مجموعة من سيارات (الهمر) التي يعلوها رشاش عيار ٧٠ يمسك به جندي أميركي أحمق ويصوب به على هؤلاء البائسين. بدأت الشمس في الغروب وبدأت الجموع أيضاً تتلاشى والشاحنة تغيب عن الأنظار شيئاً فشيئاً والدخان المتصاعد من أنقاض القلعة أخذ يخبو شيئاً فشيئاً، ولكن هل ذكرى هذه الحادثة سوف تخبو من ذاكرة هؤلاء أم لا؟!

الإجابة ستبقى معلقة، وهذا هو مصير العرب دائماً!!

تغطية

١

«ما حدث في قلعة الموت ـ جانجي ـ أن قوات عبد الرشيد والتي كانت تتولى حراسة القلعة طلبت تدخل القوات الأميركية التي أسندت المهمة للقاذفات الجوية فدكت القلعة بالقنابل الحارقة وتمت إبادتهم ولم يبق إلا ـ القليل ـ على قيد الحياة وفي حالة خطر».

صحيفة الإندبندنت البريطانية

٢

«بعد أن تمت إبادة جميع الأسرى دخلت الدبابات إلى القلعة وسط صمت مطبق والطائرات الأميركية هي التي لعبت الدور الرئيس».

مجلة التايم

٣

«القوات الخاصة الأميركية قامت بسكب الزيت على جدران القلعة ثم أمطرتها الطائرات بالقاذفات الحارقة فاندلعت النيران من جميع الجهات».

الغارديان البريطانية

٤

«إننا نحاول الحصول على تصريح بدخول المنطقة التي توجد فيها القلعة لنتفقد أحوال الناجين من المذبحة ولكن رفض طلبنا».

بيرنادت بيريت
مسؤول في الصليب الأحمر

٥

«كان حمام دم في القلعة»

مراسل رويتر

٦

«لا حاجة إلى إجراء تحقيق ولا نرى ضرورة لذلك»

رامسفيلد
وزير الدفاع الأميركي

٧

«أخرجت الفنانة هيفاء وهبي ألبومها الجديد وستعرض قناة (...) الفيديو كليب الخاص بها، ....»

صحيفة عربية

X-RAY

بعد الرحيل

عندما رحلت وتركتني حاولت أن أنساك. لم أقترب من منزلك. لم أجرؤ على أن أمسك سماعة الهاتف بعد ذلك وأضرب على رقمك. أتعرف لماذا؟

لأن كل شيء في الوجود متعلق بك قد تلاشى ولم تعد له صلة بالحياة بتاتاً!!!

تلك الطرق التي كنا نسلكها.. أماكننا التي كنا نجلس فيها أصبحت مجرد معالم تافهة في نظري، من يوم أن ذهبت لم أعد أرتشف فنجان القهوة المعتاد كل مساء ولم تعد رائحتها تستهويني مثل السابق.. عطرك المفضل (مايكل أنجلو) لم تعد له تلك الرائحة الجميلة.. لم أجد إنساناً أخبره عن مغامراتي الفاشلة مع العالم والناس ويكتفي بالإنصات والابتسام. لقد تركت فجوة كبيرة جداً في حياتي. لا أستطيع ان أحبس دموعي منذ ذهابك..

أشعر أني أحمق فعلاً!!

لم أعد أتقفى أخبار رحيلك لأنها مجرد أخبار ولا صلة لها بالواقع.

قد تكون تذكر ذلك المكان الذي كنا نجلس به عصر كل جمعة ونطلق منه التسابيح والدعوات في تلك الساعة المباركة مطلقين ناظرينا إلى غروب الشمس في لحظة معانقتها لمياه البحر.

كنت جالساً هناك قبل أشهر. لم أكن مشغولاً بشيء سوى النظر في الأفق، ذلك الأفق الذي لم يعرّفه لي أحد إلى الآن. ولم أكن أفكر بشيء. مجرد فراغ ذهني مؤقت في تلك اللحظة. شعرت بالملل من النظر إلى اللاشيء وفضلت أن أرمي بقطع الخبز الصغيرة للأسماك، كان منظر الأسماك وهي تتجاذب قطعة الخبز في غاية الروعة.. ولكن شعرت حينها أن خلفي أحداً ما، لم أهتم بالأمر ولكن فيما بعد تعجبت من أن الشمس غربت وذهبت بعيداً ولكن ذلك الشبح لا يزال جاثماً ورائي.

كان شبحاً ملتحفاً بالسواد فزعت جداً حتى كدت أن أسقط في الماء. لكن الغريب أن الشبح الجميل كان يبكي.. يبكي بحرقة وبقايا كحلة رسمت أخاديد سوداً في وجنتيه.

بادرتها:

ـ يبدو أنك مشبهة!!

ـ

ــ قد يكون المكان لك. أعتذر عن فضولي.

ــ

ــ أعتذر مجدداً.

لم تتكلم الشابة بكلمه واحدة ولكن عندما غادرتُ المكان وأدرت لها ظهري نطقت بأمر مهول.. هل تعرف الصاعقة؟

لقد شعرت بصاعقه ضربت قلبي فلم أستطع التحرك بتاتاً. بقيت على حالي تلك برهة من الزمن وأنا مولِ ظهري وهي كذلك.. أتعرف بماذا نطقت؟ لقد نطقت باسمك!!

ساد الصمت المكان ولم يعد يصدح في السماء إلا أصوات النوارس الحائمة فوقنا وبعض الأمواج الهادئة التي تضرب الشاطيء.. وباقي الكون أصابه الشلل. توقف الكون عن الحركة عندما ذكرت اسمك!!.

جمعت كل قواي لذلك الموقف الصعب. تحاشيت أن ألتفت إليها مجدداً لأني أيقنت أنني أقف أمام فتاتك. سألت بصوت قطّعه البكاء وأذبله الفراق وأضناه الهوى:

ــ أين ذهب؟

ــ

ــ ما عنوانه؟

ــ

كان الصمت هو ملجئي الذي لا أمل منه في المواقف الصعبة، واصلت خطواتي المتعثرة وتركتها وحيدة على رصيف الشاطئ يتلاعب بعباءتها السوداء نسيم الغروب الكئيب..

Messenger

مرت الشهور تلو الشهور والأحداث تلو الأحداث ولم أسمع أي أخبار عنك حتى ولو موضوعة لأن الوضاعين في هذا الزمن شغلوا بتدوين الواقع الزائف.

اشتغلت بكتابة الروايات والقصص فالخيال قد يكون رحمة في بعض الأحيان، وصادقت الورقة والقلم وفنجان القهوة من جديد وأصبح التحرش بالورقة البيضاء ألذ لي من معاشرة الواقع المرير!

ويستغرب الناس من قلمي عندما يروني فيقولون إن كتاباتك بعيدة عن شخصيتك، بها غرابة مدهشة وتكتب عن أمور محظورة لا ينبغي لمثلك أن يكتبها. لم أجد إجابة إلا أن قلمي قلمٌ ثائر لا ينساق لي بل يكتب ما يحلو له دائماً وإن كان في نظري ونظر غيري أن ما يكتبه نوعٌ من الهوس وضربٌ من الجنون!.

* * *

اليوم وبينما أنا أقلب رسائلي الإلكترونية وجدت رسالة غريبة لم أعرف مصدرها.

ولكن كانت مثيرة جداً رغم إبهامها!!

فحواها:

«هل تريد أن تعرف أين تجده؟»

بعث للمصدر رسالة فوراً:

«ومن هو؟»

ظننت في البداية أنها إحدى دعابات «الهكر» اللعين، ولكن بعد يومين أخبرني «الماسنجر» أن لديك رسالة. فتحت الرسالة مباشرة مع الإستعداد التام لخوض حربٍ ضروس مع (الهكر) وإذا بي أفاجأ بوجود صفحة بيضاء واسمك مكتوب في وسط تلك الصفحة. توقفت ثم أقفلت جميع الإطارات وبقيت أنظر إلى تلك الأحرف السوداء الصغيرة التي انقلبت إلى أشعه بيضاء أنارت ظلمة صدري الكئيب، وفوراً أرسلت رسالة عاجلة للمصدر المجهول أستفسر عن وجودك، وانتظرت الرد. مكثت طويلاً على الشبكة. لم يأت الرد. سهرت كثيراً شربت كثيراً.. قهوة طبعاً!!

يوم يومان ثلاثة لم يأت الرد!

ـ من هذا الخبيث الذي يتلاعب بأعصابي؟!

بعد خمسة أيام كان المؤشر يخبرني بوجود رسالة حديثة. فتحت الرسالة.. هل تعرف ماذا وجدت؟ وجدت أمامي حرف (X). هذا

الحرف من الحروف التي عذبتني لأنها توحي وترمز إلى أشياء كثيرة، علمت أنه رمز وليس أي رمز. إنه رمز (سيئ) قد يعني الموت أو القتل.

وربما أنه مريض.

أو أخطأ الطريق.

المهم أنه يعني السوء وليس غير ذلك. بعثت لمصدر الشؤم كل ما توصلت إليه من فك ذلك الرمز ولكنه كان يرسل لي الحرف اللعين نفسه.

* * *

عند ذاك عرفت أني لن أصل إلى شيء أبداً إلا بالطرق الملتوية، طرق القراصنة الطرق. الغير الشرعية. وفعلاً قررت تنفيذ العملية.

* * *

الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل وقت الدخول إلى الشبكة المرعبة.

* * *

دخلت إحدى غرف المحادثة (البالتوك) وطلبت من (فات) التحدث معي على (الماسنجر) للأهمية القصوى. وفعلاً لبت الطلب بشكل فعّال وقالت لي:

ــ بعد نصف ساعة سنلتقي.

ـ أرجوك لا تنسي الموضوع.

ـ لا لن أنسى.

ـ شكراً لك.

خدمة الماسنجر المعلوماتية

الرجاء تسجيل الدخول باستخدام NETPassport، لتتمكن من مشاهدة جهات الاتصال المتصلة وإجراء محادثات مباشرة وتلقي إعلامات.

البريد الإلكتروني: ....@hotmail

كلمة المرور: ******

موافق

فات: خير إن شاء الله سيلفر؟

سيلفر: إن شاء الله خير.

فات: هات الخير.

سيلفر: تتذكري قصة صديقي المفقود؟

فات: لا.

سيلفر: صديقي اللي ذكرت قصته قبل أيام.

فات: افتكرت.. إيش صار له؟

سيلفر: جت معلومات تخصه من مصدر مجهول.

فات: بجد؟

سيلفر: والله بجد.

فات: مصدر مجهول.. كيف؟

فات: ماني فاهمه شي.

سيلفر: جت رسالة غريب نصها هل تريد أن تعرف أين تجده؟ أرسلت، ومن هو؟ أرسل رسالة أخرى وقال: خالد.

قلت: نعم أين هو؟

أرسل لي: X

فات: ايش قصده؟

سيلفر: هذا رمز غامض.

فات: ارسله مرة ثانية.

سيلفر: كلما أرسلت يرسل لي نفس الحرف.

فات: غريب!

سيلفر: جاني الجنان عارفه

فات: ؟؟؟

سيلفر: أعرف أنك بتقولي لنفسك طيب ايش لي أنا.

فات: لالالالا.

فات: بس محتاره.

فات: أحاول من طرفي.

سيلفر: إيش قصدك؟

فات: أراسل المصدر.

سيلفر: إنسي الموضوع لي أسبوعين يا أختي ما في أمل.

فات: إيش أقدر اساعدك.

سيفلر: عندك فكرة عن القرصنة وسرقة الملفات؟

فات: ههههه

سيلفر: ليه تضحكي؟

فات: تسأل عن القرصنه وانت القرصان الشهير؟

سيلفر: أنا معجب بشخصيته فقط دون أعماله. خلينا في الموضوع.

فات: على فكرة أحب جزيزة الكنز، بس الحلقات الأولى والأخيرة لأنو فيها البنت.

سيلفر: أنا أحب كل أفلام الكرتون، نرجع للموضوع أحسن.

فات: ابشر عشان هذا العمل إنساني حبتين حساعدك.

سيلفر: يعني انت؟

فات: ليش الغلط من البداية؟

سيلفر: آسف جداً؟

فات: صديقتي ريمان أكبر قرصان إلكتروني أعرفه.

سيلفر: طيب ثقة.

فات: ونص.

سيلفر: متى الرد؟

فات: بكره زي هذا الوقت، بس أعطيني الإيميل المشبوه.

سيلفر: .....@hotmail.com

فات: موعدنا بكره.

سيلفر: لا أوصيكِ.

فات: لا تشيل همّ.

سيلفر: مع السلامه.

فات:

بااااااي سي يووووو.

حيرة

لا أدري هل ما قمت به صحيح أم لا؟؟

إن السطو على معلومات الناس شيء قذر ولكن لم أجد بدأً من ذلك. لقد عبث بي جداً وسوف يلقى جزاءه، ولكن كيف عرف بريدي وكيف علم أن لي صديقاً فقدته منذ زمن. لا بد أنه يعرفني.. بلا شك!.

لقد مرت ليلتان ولم يأت رد منها، آمل أن تكون هناك نتيجة.

بعد أربعة ليال

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

خدمة الماسنجر المعلوماتية

الرجاء تسجيل الدخول باستخدام NETPassport. لتتمكن من مشاهدة جهات الاتصال المتصلة وإجراء محادثات مباشرة وتلقي إعلامات.

البريد الإلكتروني: @hotmail.....

كلمة المرور: ******

موافق

سيلفر: فات، إن شاء الله في أخبار حلوة عند ريمان..

فات: أكيد والا لا ريمان.

ريمان: هااااااي، دخلت على صاحبة الإيميل وكانت على الماسنجر بعد فجر يوم الخميس وطلبت منها محادثتي.. وفعلاً ومع الكلام سحبت من جهازها الملفات دون أن تشعر.

سيلفر: معقول كانت بنت!!!

ريمان: طالبة في الثانوية في نفس حارتكم.

سيلفر: معقول؟

فات: وكمان أخذت رقم منزلها.

سيلفر: رائع جداً كنت متوقع أنها تعرفني.. وبعدين؟

ريمان: هو ملف واحد يهمك من الملفات يكشف لك سر الـ(X).

سيلفر: أنا مدين لك ولفات بشيء عظيم لن أستطيع أن أوفيه.

فات: العشاء على حسابك.

سيلفر: من عيوني.

فات: ما نبغى من عيونك نبغى من بيتزا هت.

سيلفر: خلاص إذا وصلتوا الفرع أنا حدفع عن طريق الشبكه.

ريمان: ما يحتاج تمزح فات.

سيلفر: حقكم أكبر من كذا.. والله...

ريمان: خذ الرقم ٦ ؟؟؟

ريمان: نزل الملف عندك.

سيلفر: أوكي.

فات: ننتظر الأخبار.

سيلفر: أكيد.

سيلفر: خلاص ريمان.. انتهى التحميل.

ريمان: مع السلامه.. باي.

فات: باااي

سيلفر: مع السلامه.

* * *

بمجرد أن انتهيت من تحميل الملف الذي يحوي السر الذي كنت أبحث عنه أصابتني رعشه وبدأ العرق يتفصد من جبيني وأخذ قلبي يرتجف بشدة. فتحته وفعلاً كما توقعت.. إنه حرف سيئ!!

الـملف:

بيـان بأسـمـاء ١٥٧معتقلاً سعودياً بمعسكر أشعة (X) بخليج غوانتناموا بكوبا

١ــ...........................

٢ــ.........................

٣ــ.............................

٤ــ خالد القرشي.

....

....

....

....

شرح

سعادة النقيب

الرجاء التأكد من أسماء المعتقلين أعلاه والإفادة عاجلاً

الصدمة

من فترة طويلة لم أكتب شيئاً ولا حتى حرفاً واحداً. لا أدري لماذا هذا الجفاف؟! قد يكون من هول الصدمة، فقد توقعت كل شيء ولكنني لم أتوقع بتاتاً أنك تقبع في تلك الأقفاص التي ترفضها حقوق الحيوان فضلاً عن حقوق الإنسان!!

هل فعلاً أنك في تلك القاعدة العسكرية الكئيبة تلفحك الشمس الحارقة نهاراً وتكتم أنفاسك رطوبة البحر الكاريبي الممل ليلاً؟.. عندما عرفت الخبر لا تتصور جيوش الأحزان التي أتتني بخيلها ورجلها وأناخت بداخلي. أصبحت أرى السلاسل والأصفاد في منامي. أوحشني منظرها أزعجني صليلها. أستيقظ من منامي فأجد الواقع أرعب وأوحش بكثير!!.

لكني أنا من سعيت لمعرفة لعنة حرف (X)، هل تعرف يا صديقي الحاضر الغائب أني تعلمت كثيراً من الدروس بعد رحيلك لم أكن

لأتعلمها لو لم تذهب، وهذا ما تميزت به عن غيرك. إن صداقتك ذات أثر بالغ حتى وأنت غائب.. فعرفت فعلاً أنك صديقي وسوف تبقى صديقي مهما ابتعدت عني.

وعرفت أيضاً أن الإناث يهمهن أمرنا أكثر مما نهتم نحن، إن الأنثى لا تنسى بتاتاً، ولهيب فؤادها يغمرنا دون أن نشعر. قد تستغرب أن أكثر من وقف معي بعدما رحلت هن الفتيات اللاتي لم نفكر بهن بتاتاً. (عزيزة) تأتيني إلى الشاطئ وتسأل عنك و(سارة) جارتي التي والدها يعمل في البحث ترسل لي لعنة الـX لتخبرني بمكانك، و(فات وريمان) يساعداني في الوصول إلى الحقيقة المرة. هل عرفت حقيقة المرأة؟

إن للمرأة قلباً مليئاً بالأسرار!

رسائل

الرسالة الأولى:

إلى من عشت معه برهةً من الزمن ثم فرق بيننا الزمن لحكمةٍ يعلمها الباري سبحانه. أكتب إليك هذه السطور ولا أعلم هل تصل إليك أم لا؟

نحن بخير وفي أحسن حال ولله الحمد ولا نسأل إلا عنك.

نحن معك بقلوبنا صباحاً وفي أحلامنا ليلاً، وكم من مرة أراك في المنام على أحسن حال.. ووالله لا يفتر اللسان داعياً لك.

إن لك أباً مؤمناً راضياً بقدَر الله مهتماً بك أشد الاهتمام، وأماً صابرة على ما كتب لك وهم بحاله طيبة ولله الحمد.

أكتب لك والشوق يلهب صدري والدمع يجري حاراً من مدمعي. وأقول لك إن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً.

اجعل المولى أنيسك في كل وقت. واجعل لسان حالك: أنا جنتي في صدري أينما ذهبت فهي معي.

أخي أنت الآن تعبر بوابة الابتلاء والامتحان. وما يحصل لك أنت وإخوانك إنما هو من الله فارض بما كتب الله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

أما بالنسبة للرسائل، فقد وصلنا منك ثلاث رسائل فقط وقد رد والدك برسالتين.

أخيراً، أخي عليك بالدعاء ونحن كذلك. وإن الله ليستحيي أن يرد يدي عبده صفراً إذا دعاه. وختاماً فلك السلام مع الكواكب ما بدت أو طار طيرٌ أو ترنم شادياً. ٧ رجب ١٤٢٣

* * *

طويت الرسالة ووضعتها في ظرف ولا أدري ماذا سأضع مع تلك الرسالة؟

فلم أجد شيئاً أفضل من بصيص الأمل لكي تصل إليك بعد أن تعبر القارات والمحيطات.

كتبت عنوانك على ذلك الظرف وكلي أمل في أن تصلك.

Detainee: AIE
ABZ 001961 Camp X-RAY
Washington, Dc 20355
U. S. A

كابوس

استيقظت من نومي فزعاً والعرق يتفصد من جبيني. كان الحلم مفزعاً فقد رأيتك مكبلاً بالسلاسل تقصدني، وكانت أصوات الأصفاد مزعجة للغاية لدرجة أنها لا زالت في أذني، همزت مفتاح النور، الغرفة ساكنة لا شيء غير سريري ورف على الجدار يحمل بعض الفازات بها بعض النباتات ومجموعة من الكتب التي تتحدث عن أدب السجون.

شرق المتوسط

تلك العتمة الباهرة

السجينة

السنوات الرهيبة

وكانت بعض النباتات قد مالت أغصانها بشدة ولا أدري هل

انحنت لقلة الماء أم لمجاورة تلك الكتب المرعبة، نهضت من سريري وسقيت تلك النباتات ثم رجعت إلى الفراش، كنت أدعو أن لا يرجع إليّ الصليل مرة أخرى.

الرسالة الثانية

لم أعد أستطيع أن أكتب شيئاً إلا الرسائل فقط. تركت أوراقي وأعمالي الأدبية. من فترة لم أعد أقرأ بتاتاً. اخترت الرسالة لأنها تلبي احتياجاتي الوجدانية أكثر من غيرها.

عزيزي خالد.

هذه رسالتي الثانية...

تخطها الأنامل المترددة.. هل ستصل هذه الكلمات أم لا؟

ولكن صيحات التفاؤل يتردد صداها في صدري وقلبي قائلةً اكتب وتوكل..

لا أدري ماذا أكتب لك؟ فالوضع في هذه الأيام غريب جداً. كلمة (إرهابي) صارت تطلق هكذا دون مبرر وسبب، كل ما

تقول عنه أميركا أنه إرهاب هو إرهاب!

جمع التبرعات للمتضررين من الحرب إرهاب!

إلقاء كلمة عن أميركا ونشر مقال عنها إرهاب!

أي كلمة ضد الصهيونية إرهاب!

أي شاعر أشاد بالمقاومة الشعبية إرهابي!

أي شخص لديه وجهة نظر مخالفة إرهابي!

كل من طالب بحقوقه إرهابي!

كل من يضرط ويطلق من مؤخرته أصواتاً قوية إرهابي!

لهذا خاف كثير من أهل الدين من هذا المصطلح (إرهابي) فأصبح مصطلح (أرستقراطي) هو الأسلم والآمن، لماذا؟

لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والضرورات تبيح المحظورات والضرر العام يقدم على الضرر الخاص، وفقه التيسير هو الأولى.

وصار الشيخ في درسه إذا مر على كتّاب الجهاد أو باب الإمامة أو فصل الولاء والبراء تجاوزه حتى لا يساء به الظن!!

ثم بعد فترة تتوالى علينا نكبات التفجير والتكفير، ونفاجأ بقوم عملوا أعمالاً باسم الجهاد وليست من الجهاد، وخرجوا على الإمام

من دون مبرر للخروج، وأصبح الولاء يعني البراء والبراء يعني الولاء في شريعة الكثير من الجهلة!!

الشاهد.. أصبح المشايخ لا يفتون إلا في القصور والفلل الفخمة، والدروس تلقى عن طريق القنوات الفضائية، وغرف (البالتوك)، والشيخ الذي ـ نحبه في الله ـ إذا جاء من يسأله عن فتوى تمس أمر الأمة، ينتظر السائل الساعات الطوال حتى يخرج الشيخ للمسجد ـ هذا في حالة إن لم يكن لديه مسجد في قصره ـ فيقول له: لك خمس دقائق فقط ويجيبه على عجل، وإذا اتصلت به فتاة بالهاتف تسأله عن مسألة من مسائل الحيض أجابها خلال خمس ساعات، خمس دقائق للأمة وخمس ساعات للحيض!!

غربة... غربة فعلاً.

والوضع كما يقولون (حوسه).

أخيراً، أخي اجعل قول يوسف عليه السلام رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، نصب عينيك دائماً.. ونحن ننتظر قدومكم إلى أرض الحرمين بسلام آمنين.

تحياتي

١١ شعبان

البريد

عندما ذهبت إلى مكتب البريد ورأى موظف البريد عنوانك أو بالأصح حرف الـ X أصابته الرعشه والخوف ثم قال:

ــ ما هذا؟

ــ رسالة.

ــ أقصد العنوان؟

ــ معسكر أشعة إكس بغوانتاناموا.

ــ هل أنت قريبه؟

ــ لا أكثر من ذلك.

ــ أخوه؟

ــ لا صديقه.

ــ دقيقة من فضلك

* * *

وبدأ الموظف المسكين بالاتصال بالمسؤولين على البريد ولا يدري كيف يحل هذه المصيبة العويصة التي حلت به، وبعد فترة طويلة كانت النتيجة أخذ معلومات وافية عن الشخص المرسِل وصورة من هويته!!

خرجت وأنا أنظر إلى المبنى لأني ظننت أني دخلت مبنى للمباحث لا للبريد!.

قلت لنفسي: كل شيء الآن أصبحت المباحث جزءاً منه. إذا كان المسجد به مندوب من المباحث فالأماكن غيره من باب أولى!

حينها تذكرت الشيخ كشك فقد قال مرة في إحدى خطبه:

«إن الله وملائكته يصلون على أهل الصفوف الأُول»(*)

إلا في مسجدي هذا..

ليه يا ولاد؟

لأن أغلبهم من المباحث!!

(*) حديث شريف.

نيردو (١)

أنا الآن في إحدى في المدن الساحلية الإسبانية أبحث عن قرصان شهير يدعى (جاك نيردو). من يصدق أني في يوم من الأيام سوف أبحث عن القرصان الشهير (جاك نيردو)....هذا القرصان من أعرف الناس بأسرار وغرائب البحر الكاريبي الذي ترتطم أمواجه بزنزانتك!.

كانت تلك المدينة الساحلية تختنق بالرطوبة المالحة، لكن لم يصرف ذلك الناس عن ممارسة حياتهم بكل اعتيادية. حل الظلام وأنا لم أجد بعد (نيردو). طفت جميع الحانات والدور المنحطة فلم أجده. قررت تلك الليلة أن آوي إلى أحد الفنادق القديمة. دخلت أحدها فلم أجد غير امرأة جالسة على درج الفندق ومشغولة بإرضاع طفلها الصغير، عندما رأتني أحمل متاعي قطعت الرضاعة ثم حملت الطفل وقالت:

ــ أهلاً بك يا سيدي، فندقنا طوع أمرك، هل من خدمة؟

ــ نعم، غرفه نظيفة من فضلك.

ــ سوف أعطيك أنظف غرفة لدينا.

ــ جيد.

ــ دع متاعك سوف يحمله الغلام.

ثم نادت:

جومينو. جومي.. جومي

أتى ذلك الغلام الذي يحمل قلادة في عنقه وقطعة من القماش تجمع شعرة الطويل المتناثر.

قالت له:

ــ احمل متاع هذه الأمير العربي إلى الغرفة رقم (٤) ولا تزعجه بكثرة الأسئلة.. مفهوم!!

ــ حاضر مدام (فينسينا).

حمل (جومينو) متاعي وأخذ مفاتيح الغرفة. دخلت الغرفة ووضع جومينو متاعي ثم قال:

ــ هل من خدمة سيدي؟

ــ لا، جو..

ــ جومينو.. سيدي، جومينو.. وإن شئت جومي..

ــ أريد خدمة بسيطة منك.

أخرجت بعض النقود ووضعتها في يد جومي.. فقال:

ــ أنا تحت أمرك أيها الأمير العربي!

ــ أنا لست أميراً. كنا نحكم فيما مضى هذه البلاد وأصبحنا الآن محكومين.

ــ لم أفهم سيدي.

ــ ليس من المهم أن تفهم.. جومي!

ــ نعم أيها الأمير..

ــ هناك شخص يدعى (جاك نيردو) أريدك أن تبحث عنه، إنه في هذه المدينة، أنا متأكد.

ــ سوف أجتهد في البحث عنه.

ــ ابحث عنه في الحانات فهو مدمنٌ على الخمر ويحب النساء كثيراً.

ــ سوف أبحث عنه هذه الليلة وغداً أخبرك بكل شيء.

ــ لا تخبر أحداً بهذا الموضوع.

ــ لا تخف أيها الأمير.

* * *

نمت تلك الليلة على أمل أن يجد جومي بعض الأخبار الجيدة.

(لازال صندوق البريد فارغاً)

نيردو (٢)

أتى جومي بالأخبار كما توقعت.. وذهبت في المساء إلى حانة (العاهرة النبيلة) حيث يقبع جاك نيردو كل ليلة. دخلت الحانة وكنت أسمع الضجيج من بعيد قبل أن أُدخل الحانة. وكما توقعت كانت مزدحمة بالرجال والمومسات والغجر القذرين، وروائح الخمر تسكر فضلاً عن أن يشربها الشخص والعرق يتصبب بشدة من الجميع. شاهدت جاك نيردو من بعيد يرتدي ملابس قبطان. كانت ملابسه قديمة وواسعة جداً على جسده النحيل المليء بالشر والقرصنة. كان له ذلك الوجه النحيل القمحي المائل إلى السمرة وشعرٌ مضفور، وكذلك لحية مضفورة، وشاربان أسودان نحيلان معكوفان، ويحمل على أحد جنبيه سيفاً صدئاً وعلى الجنب الآخر مسدساً قديماً ذا طلقة واحدة.

كان الجدال على أشده بين نيردو وصاحب الحانة، وكنت أراقب المشهد بعد أن أخذت مكاناً بالقرب منهما:

ـ نيردو، لا بد أن تدفع الديون التي عليك أولاً ثم تطلب.

ـ أحضر الطلب ثم نتناقش في هذا الموضوع فيما بعد.

ـ نيردو أنت دائماً تكرر هذا الكلام كل ليلة.

ـ اصمت وأعطني خمراً معتقة أيها المغفل.

عندما رأيت أن الجدال سوف يسفر عن عراك شديد استغليت الموقف لصالحي ثم ناديت صاحب الحانة:

ـ كم يبلغ دين السيد نيردو؟

ـ ٢٥٦ (بيزيتا) لماذا تسأل هل ستدفع عنه؟

ـ نعم فهو صديقي منذ زمن. هذه ٣٠٠ (بيزيتا) والباقي احتفظ به لنفسك.

صرخ الرجل مسروراً وقال بأعلى صوته:

ـ نخب الصداقة. المعتق للكابتن جاك نيردو.

كان هذا على مرأى ومسمع من جاك نيردو الذي بدأ يقلب ناظريه مستغرباً من هذا الفعل. تقدمت بعد ذلك إلى طاولته وقلت:

ـ هل تسمح لي بالجلوس معك؟

ـ نعم تفضل أيها الصديق الغريب!

ـ شكراً لك.

ـ أين النبيذ المعتق أيها النادل المخنث؟!

ـ هوّن عليك يا جاك.

ـ ماذا لديك أيها الغريب؟ أنا أكره التمطيط في الكلام، فأنت لم تقم بسداد ديني إلا لحاجة تريد أن أقضيها لك؟

ـ صحيح.

ـ لا أحب إطالة الكلام.

ـ وأنا أيضاً، حقيقة سألت عن إنسان له معرفه بالكاريبي فلم أجد أحداً سواك.

ـ ماذا تريد من الكاريبي؟

ـ لدي صديق مأسور هناك أريد إنقاذه.

ـ وماذا أفعل أنا؟!

ـ أنت قرصان، تستطيع أن تفعل كل شيء!

ـ ولكن ليس إنقاذ الأسرى من مهام القراصنة.

ـ أعرف ولكن اعتبر هذا خروجاً عن القانون إن شئت.

ـ لكن الذي أعرفه أن القانون والنظام هو من يدافع عن صديقك ويحميه؟

ــ كابتن جاك، إن القانون والنظام قد يكون جحيماً في بعض الأحيان، وخاصة إذا صدر من أميركا.

ــ أميركا.. ومن هذه المرأة؟ يبدو أنها متسلطة!

ــ أميركا ليست امرأة بل دوله تدّعي السلام وحفظ الأمن وهي بعيدة كل البعد عن ذلك.

ــ هل تريد مني غزو أميركا هذه؟

ــ لا لا يا كابتن، أريدك أن تنقذ صديقي فقط.

ــ ولكن هذا ليس بالأمر السهل؟

ــ المال لدي، كل ما تحتاج له سوف أوفره لك. كل ثروتي بين يديك.. ولا تنس قبل ذلك أنه عمل إنساني!

ــ تقول عمل إنساني، لم أعمل في حياتي عملاً كهذا.. ولكن دعني أفكر قليلاً!

ظل (جاك نيردو) يفكر لحظات ثم بعد ذلك رفع قدحه عالياً قائلاً:

ــ نخب الإنسانية.. تحيا الإنسانية.

فردد كل من في الحانه بصوت مرتفع:

ــ تحيا الإنسانية.

(لم يصلنا إلى الآن أي رسالة منك. رغم ذلك لن أيأس وسوف أكتب مهما كان...)

نيردو (٣)

في اليوم التالي، وقبل أن ينبثق النور، شقّت سفينة الكابتن نيردو (جهنم البحار) طريقها قاصدةً البحر الكاريبي لهدف إنساني رائع!.

كان الكابتن جاك نيردو يصيح في الطاقم المكون من ثلاثين بحاراً أو بالأصح قرصاناً.. أرفعوا المرساة، فكّوا الأشرعة اربطوا الحبال..

* * *

مرت الأيام سريعة جداً ونحن في خضمّ المحيطات، وكان أكثر كلامي مع الكابتن جاك نيردو عن أفعال أميركا الشنيعة وتاريخها الأشنع مع البشرية وأن الدماء البريئة ملطخة بتاريخها الأسود منذ بدايتها، ابتداءً بالمجازر ضد الهنود الحمر ووضعهم المكافآت على فروات الرؤوس حيث كانت فروة رأس الرجل تختلف عن فروة

رأس الأنثى والطفل! ثم أخبرته عن بيع الرقيق الذين كانت تخطفهم أحراراً من السواحل الأفريقية وتبقيهم شهوراً طويلة مكبلين بالحديد في أسفل السفن عراة رجالاً ونساءً وصبياناً يتغوطون على بعضهم ويتبولون على بعضهم وإذا ماتوا يقذفونهم في البحر!.

ثم حدثته عن القنبلة الذرية التي أهلكت البشرية في هيروشيما وناغازاكي وحصدت الملايين موتاً وتشويهاً إلى وقتنا الحاضر.

وحدثته عن الحرب الفيتنامية والجرائم القذرة التي كانوا يرتكبونها هناك من تقتيل الأبرياء واغتصاب النساء الفيتناميات في حقول الأرز.

وبينت له غطرستها مع المكسيك وكوبا وقضية خليج الخنازير واحتلالهم قناة بنما عنوة ودون مبالاة واعتبار.

ثم ذكرت له الضحكة الكبرى والقصة المسخرة حرب الخليج التي كانت في الأساس حرباً المستفيد الأول والأخير منها هي أميركا نفسها وهي التي كتبت فصولها بكل براعة.

ثم ذكرت له المسرحية الأميركية الصهيونية عندما سقط البرجان المشؤمان (برجا التجارة) بكل سهوله وكأنهما عودا ثقاب!! طائرتان وجهتا بأجهزة التحكم من بعد واصطدمتا بالبرجين وكأن المسألة لعبة كومبيوتر مثيرة.. اصطدمتا بالبرجين واشتعلت النيران فيهما دقائق معدودة ثم تهاوى البرجان نتيجة بعض المواد المتفجرة التي زرعت عن قصد في أحشائهما!!.

أخبرته أنه قد تباكى كثير ممن شاهدوا تلك المسرحية وخاصة بعض اليهود الذين من المفترض أن يكونوا داخل البرجين.. لكن يبدو أنه

تنّزل عليهم الوحي الشيطاني قبل أن يسقط البرجان!

توعد الشيطان الأعظم بالانتقام والثأر من ذلك الغول الذي سبب هذا كله!

وبدأ تنفيذ المخطط على أرض الواقع حقيقة دون أي عوائق تذكر. ورنّت كلمات الشيطان «من ليس معنا فهو ضدنا».

من ليس معنا في قتل الأبرياء والضعفاء فهو ضدنا، من ليس معنا في تدمير الديار والأوطان فهو ضدنا. من ليس معنا في تدمير الأخلاق والإنسانية فهو ضدنا!

إنها مسرحية واضحة الفصول، والكل يعلم ذلك لكنهم يفضلون المشاهدة على التدخل في الأحداث!

وأخبرت جاك نيردو أنه لأجل هذين البرجين الصدئين احتلت أميركا تلك بلدين عظيمين من بلاد العالم الإسلامي بعد أن دُكّا بالصواريخ وأطنانٍ من القنابل المحرمة، وقد أسر صديقي في أحد البلدين ثم نقل إلى معتقل غوانتانامو غير الإنساني. وذكرت لجاك المعاناة التي يعانونها في ذلك المعتقل الذي يضم معتقلين من كل أصقاع العالم، ومع ذلك لا يستطيع أحد الوقوف أمام (ماما أميركا) التي أرضعت أبناء غير شرعيين لها ووزعتهم في كل بقعة في العالم!.

* * *

قاطعني الكابتن نيردو وقال لي:

ـ لو كانت أميركا هذه امرأة لأسرتها وجعلت كل الرقيق الذين

أذلتهم يقومون باغتصابها واحداً تلو الآخر حتى تقذف آخر أنفاسها مع قذف آخر عبدٍ يغتصبها!.

* * *

مرت الأيام الطوال على متن السفينة وكل يوم أذكر جزءاً من تاريخ أميركا الأسود للكابتن جاك نيردو. حقيقة لم أنته من سرد ذلك التاريخ الأسود لتلك الدولة الهمجية حتى بدت ملامح خليج غوانتانامو تظهر لنا في الأفق. ثم قطعت كلامي لأن المهمة ستبدأ قريباً.. تركت (نيردو) يفكر بذكاء في كيفية الهجوم. لقد كانت أحاديثي لجاك خلال تلك الرحلة الشاقة كفيلة بأن تزرع الحقد الثائر في صدر (نيردو).

* * *

قبيل الفجر صُوِّب ١٢ مدفعاً بدائياً صدئاً تجاه معسكر أشعة أكس الذي تحتجز به.

كان القرصان الشهير جاك نيردو يصرخ آمراً بإطلاق المدافع:

ــ أطلقوا النار.. أنقذوا الإنسانية.. هيا يا رجال.. هيا أيها القراصنة الأبطال.

* * *

أعلم أنك ستضحك كثيراً عندما تقرأ هذه القصة الخيالية التي نسجتها لك لتعلم أني طوال فترة غيابك لم أجد ما يقلل من معاناتي إلا كتابة القصص والرسائل الحزينة.

الرسالة الثالثة

فها أنا أكتب لك رسالتي.. في هذه الليلة المباركة ليلة ٢٧ رمضان، أبشرك أن دعواتنا تنطلق كل ليلة من هذه الليالي المباركة بأن يعجّل في فك أسركم.

واعلم أنك في عباده عظيمة، قال تعالى عنها: ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي بلا حد ولا عد. وقال عنها سبحانه: ﴿وبشر الصابرين﴾ ولما علم عليه السلام أن أمته وأصحابه وإخوانه سوف يجدون من الأمور التي سوف يبتلون بها الشيء العظيم قال لهم عليه السلام: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض». أخي إنها أيام قلائل وسيأتي الفرج منه سبحانه، واعلم أن فرج الله يكون أحياناً أسرع من سرعة الضوء!!.

ـ قال داود عليه السلام:

يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟

قال سبحانه: جزاؤه أن ألبسه الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً.

وكان أحد الصالحين له رقعة يخرجها كل ساعة وينظر فيها وكان فيها ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾.

وأريدك أن تتأمل هذا الحديث من رسول البشرية جمعاء قال عليه السلام: «عجب ربنا من قنوط عبادة وقرب غِيَره، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» رواه أحمد

٢٧ رمضان

استجواب

بعد أسبوعين من إرسال رسالتي هذه تلقيت مكالمة من المباحث تطلب مني أن أحضر لكي يستفسروا عن بعض الأمور المهمة.

* * *

في صباح اليوم التالي توجهت إلى شارع (التوبة) على يميني سجن (الرويس)(*).. الرويس اللغز العظيم والشفرة التي لم يستطع أن يكتشفها أحد!

يا إلهي الرويس (مره وحده)!!

طرقت تلك البوابة الكبيرة، وقام أحدهم بفتح نافذة صغيرة جداً بحيث لا أكاد أرى سوى جزءٍ من وجهه وسألني:

(*) سجن سياسي مشهور بجدة.

ـ ماذا تريد؟

ـ طلبوني أمس على الهاتف.

ـ انتظر دقيقة.

* * *

نظرت إلى الشوارع والأبنية.. ألقيت نظرتي التي ربما تكون النظرة الأخيرة على تلك المعالم من مدينتي الرائعة.. فقد أكون بعد دقائق في أغوار عالم أخر غير هذا! انتظرت قرابة ربع ساعة ثم فتح باب صغير من تلك البوابة الكبيرة:

ـ لو سمحت الهوية.

ـ تفضل.

ـ ادخل ثالث مكتب على اليمين.

* * *

دخلت البوابة. لم أجد في ذلك العالم إلا مبنى عن يميني مكوناً من طابقين وهو عبارة عن مكاتب، وعن يساري أرض فضاء جرداء لم يكن بها غير بعض شجيرات (العُشر) وجرافات عظيمة تمسح الأرض استعداداً لعمل ما.

أين الزنازين؟!

* * *

دخلت المكتب فإذا بإنسان ضخم البنية، ينظر في ملفات صفراء على مكتبه ويحرك نظّارته في كل حين.. رأيت أمامه خطاب استدعائي عليه شرح نصه (يحقق مع المذكور و...).

قال لي:

ـ أنت.. تفضل اجلس.

ـ ماذا تشرب؟ بارد أم ساخن.

ـ لا يهم، أي شيء.

ـ شاي نعناع؟

ـ شاي نعناع.. جيد.

أخذ النقيب يرتب أوراقه وملفاته.. وأتى الشاي. شعرت بنوع من الراحة، فما دام أن الاستقبال هكذا فيعني أنه ليس هناك أمر مهم جداً، قد يكون مجرد روتين، نعم مجرد روتين. ليس هناك قلع أظافر وعصر خصيتين وإدخال قضيب بالدبر كما قرأت في رواية شرق المتوسط!

ـ سوف أسألك أسئلة وتجيب أنت على الورقة التي أمامك بعد أن تكتب جميع معلوماتك وعناوينك.

ـ أبشر.. أنا من المتعاونين مع الحكومة.

ـ هذا ما نريده.

ـ ما اسم أمك؟

ـ صالحة.

ـ وجدّتك لأمك؟

ـ خضراء.

ـ مكان الميلاد؟

ـ جدة.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ ١٩٧٨م.

ـ في أي حي؟

ـ النزلة اليمانية.

ـ كم لك من الإخوة؟

ـ ١٠، خمسة ذكور وخمس إناث.

ـ كيف كانت طفولتك؟

ـ لم أفهم!

ـ سعيدة أم تعيسة؟

ـ سعيدة ولكن دموية.

ـ هل قتلت أحداً؟

ـ لا، رأيت دماءه فقط.

ـ دماء بشر؟

ـ نعم أخ قتل أخاه!!

ـ هل سرقت شيئاً عندما كنت صغيراً؟

ـ نعم.

ـ ماذا سرقت؟

ـ خبزاً وجوارب وحلوى و..

ـ كفى، هل كانت لك علاقات في صغرك؟

ـ ماذا تقصد بعلاقات؟

ـ أي علاقات، علاقات ودية، أخوية، إجرامية، جنسية..

ـ لا، كانت لي صداقات سطحية.

ـ مع من؟

ـ أصدقاء في المدرسة وفي الحارة.

ـ من هم أصدقاؤك في الحارة؟

ـ أغلبهن فتيات.

ـ اذكر أسماءهن؟

ـ نوره، أفراح، صفيه، فطوم، زرعه..

ـ هل ارتكبت جناية ما؟

ـ لا.

ـ هل دخلت السجن؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ مشاجرة.

ـ أنت عنيف؟

ـ لا لم أشارك في المشاجرة، متفرج فقط.

ـ هل تدخن؟

ـ لا.

ـ تشيّش؟

ـ نعم.

ـ معسّل؟

ـ لا، زغلول.

ـ هل تتعاطى شيئاً؟

ــ كل شيء.

ــ أقصد المخدرات..

ــ لا.

ــ هل سبق أن تعرضت لصدمة نفسية من جراء حادث ما؟

ــ نعم، عندما مات عصفوري الصغير الذي..

ــ أقصد حادثاً عاطفياً أو جنائياً أو أخلاقياً؟

ــ لا.

ــ هل تعرضت للاغتصاب أو التحرش في طفولتك؟

ــ الاغتصاب لا، لكن التحرش كثير لأن المجتمع ذكوري و..

ــ ما هي مؤهلاتك العلمية؟

ــ جامعي.

ــ والوظيفة؟

ــ لا وظيفة. عاطل منذ خمس سنوات.

ــ ماذا تعمل إذاً؟

ــ أكتب القصص.

ــ قصص ماذا؟

ـ قصص أطفال.

ـ هل لك أصدقاء؟

ـ كان لي صديق.

ـ تقول كان لك.. هل مات؟

ـ لا، اختفى. رحل.

ـ.......................

ـ.......................

ـ انتظر بالخارج.

دعاء

كان الانتظار يذكّرني بانتظار حكم الإعدام، بدأت أرتجف وبدأ العرق يتفصد من جبيني ومن كل مسام جسدي، عندها علمت أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرتفع إلا بتوبة، لذا من الأفضل أن أدعو الله كي يرفع عني هذا البلاء.

«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[*]

يا رب..

رغم ذنوبي الطفيفة إلا أنها قصمت ظهري وصارت حملاً ثقيلاً تبطىء سيري إليك!

(*) حديث دعاء الكرب.

يا رب..

إن تعبت خطواتي في دروب الغرام ولم أجد محبوبتي في أزقة المدينة الرطبة وتحسرت كثيراً على تفويت ذلك فاغفر لي حسرتي وخطوتي!

يا رب..

إن كان حب الأدب والكتابة والإعجاب بنجيب محفوظ وثلاثيته وعبدالرحمن منيف ومدنه ومكسيم غوركي وأمه.. إن كان هذا من جملة المعاصي والفسوق فاغفر لي!

يا رب..

إن كان تلذذي بقصائد نزار ونزواته وأحمد مطر ولفتاته والشابي وأغنياته، محض غفلة وإغواء فاغفر لي وردّني إلى الصواب.

يا رب..

سامحني على معاقرتي النارجلية وبعض السجائر الدانهيل التي سرقتها من صديقي الأحمق.. إن كان ذلك تحت دائرة المعاصي فاصرفني عنها واصرفها عني يا إلهي!

يا رب..

إن كان في سماعي لمقطوعات نصير شمة ومارسيل خليفة وزامفير وياني وجون ويليامز فسق ومجون فاغفر لي فسقي ومجوني!

يا رب..

إذا كان إعجابي بـ (آل بتشينو وروبرت دنيرو وتوم هانكس

وأنتوني هوبكنز ودينزل واشنطن وسلين دويون وساندرا بولوك) خطيئة فأحرقهم من قلبي وعوضني بحب الصالحين واجعل حبك في قلبي أبدياً سرمدياً!

يا رب..

إذا كانت العطور كحولاً والكحول رجساً أيضاً فاغفر لي عدد ما رششت من: (أنقاروا وبلانسياقا وكريد) وكذلك بعض الرشات من (لوليتا ونوا) وعطور نسائية أخرى أخذتها خلسة من تسريحة أمي وأختي.

يا رب...

إن كان حبي لابن الوليد وأبو محجن الثقفي ونور الدين محمود وكمشتكين بن دانشمند وجميع الإرهابيين في العالم خطيئة فاغفر لي ونوّر بصري وبصيرتي!

إلهي هذه جملة من ذنوبي الطفيفة التي قصمت ظهري وصارت حملاً ثقيلاً يبطئ سيري إليك.

أللهم فرج عني.

أللهم فرج عني.

* * *

فجأة سمعت أحدهم يقول:

ـ أنت يا أخ.. يا من وضعت يديك على وجهك، النقيب يريدك!

عودة للاستجواب...

كان الجندي النحيل الذي دعاني غاية في الدمامة والقبح، ينظر إليّ ويدخن سيجارة من نوع (روثمان). أسنانه سوداء كالزبيب الأسود تماماً، والشفاه أيضاً. كان شديد السمرة دهني الوجه، أجعد الشعر بدلته مفتوحة الأزارير و(القايش)(*) متدلّ ويحتذي (زنوبة)(**). رغم هذا كله استبشرت وتفاءلت!

بمجرد أن دخلت على النقيب قال لي:

ــ اكتب كل ما تعرفه عن خالد!

ــ من خالد؟

(*) الحزام.

(**) حذاء الحمّام.

ـــ خالد إبراهيم القرشي!

ـــ خالد هو الصديق الحقيقي لي في هذا الوجود.

ـــ فقط هذا الكلمات؟

ـــ إنها كلمات قليلة لكن عميقة!

ـــ كيف تعرفت إليه؟

ـــ في المدرسة.

ـــ درستم معاً؟

ـــ نعم آخر سنة في الثانوية.

ـــ هل كنتما تلتقيان خارج المدرسة؟

ـــ نعم.

ـــ أين؟

ـــ نذهب إلى كل مكان، البحر، الكافيه، المطاعم، القهاوي..

ـــ ما هي وجبتكما المفضلة؟

ـــ الوجبات الشعبية، شورما، كبده بلدي، فول، طعمية..

ـــ وهل كنتما تشربان معاً؟

ـــ أنا كنت أشرب اللبن بالفرولة ومعه فطيرة التفاح، وهو كان..

ـ لا لا.. أقصد مشروبات روحية كحول، ويسكي..

ـ تقصد الخمر؟ لالالالا بتاتاً يا سعادة النقيب. لقد كانت صداقتنا قمة في الصفاء والأدب والأخوّه.

ـ دخلتما الجامعة معاً؟

ـ لا، أنا دخلت الجامعة وهو دخل كلية التربية..

ـ واستمرت العلاقة؟

ـ استمرت العلاقة.

ـ إلى متى؟

ـ...............

ـ إلى متى؟

ـ إلى أن اختفى؟

ـ وهل تعرف إلى أين رحل؟

ـ لا.

ـ هل طلب منك نقوداً قبل أن يذهب؟

ـ نعم.

ـ وأعطيته؟

ــ نعم بدون تردد.

ــ كم؟

ــ لا أدري فهو يحمل بطاقة الصراف الخاصة بي وأنا كذلك أحمل بطاقته.

ــ كم أخذ؟

ــ لا أدري.. ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ دولار.

ــ هذا مبلغ كبير بالنسبة لك؟

ــ الصداقة لا تجعلني أحسب كم أخذ وكم أبقى، ربما أعطاني هو أكثر مما أخذ مني، الصداقة أكبر من المال يا سعادة النقيب.

ــ غريب!

ــ ما الغريب؟

ــ لا شي..ء دعنا نكمل التحقيق.

ــ تفضل.

ــ لم يتصل بك بعد ذهابه؟

ــ لا.

ــ هل تعرف أين هو الآن؟

ــ لا أدري.

ــ متأكد؟

ــ أسمع بعض الأنباء عن أنه معتقل.

ــ أين؟

ــ أظن أنه في كوبا.

ــ عرفت أنه في الأسر؟

ــ نعم.

ــ كيف؟

ــ اتصلت بوالدته وأخبرتني!

ــ هل اتصلت به هناك أم اتصل بك؟

ــ لا.

ــ هل أرسل لك أم أرسلت له؟

ــ لم يرسل لكني أرسلت له.

ــ متى أرسلت له؟

ــ قبل عدة أشهر.

ــ هل لا زلت ترسل له؟

ــ نعم أحياناً.

ـ من أين ترسل رسائلك؟

ـ مرة من وزارة الداخلية والغالب من مكاتب البريد.

* * *

توقف النقيب عن الأسئلة ثم أخذ مني تلك الأوراق التي تضمنت جميع ما ذكر في التحقيق وأخذ ينظر إليها ويقلبها ثم قال لي:

ـ هل كل ما كتبته هنا هو الحقيقة؟

ـ نعم.

ـ تقسم؟

ـ أقسم.

ـ وقّع هنا في الأسفل.

ـ هذا توقيعي.

ـ اذهب إلى قسم الصادر، لدينا أشياء لك سوف تسرك!!!

ـ لي أنا؟

ـ نعم، اذهب.

* * *

وقّعت على صحة أقوالي ثم ذهبت وأنا في حيرة من أمري.. ما هو الشيء المثير الذي لي هنا في هذا المكان المرعب الذي لا يسر

من دخله؟!

ـ قد يكون السجن المظلم هو الشيء الذي لا يسرّ؟!

دخلت قسم الصادر وقلت للموظف الذي كان يقرأ جريدة الحرية.

ـ آسف، سعادة النقيب يقول إن لي أشياء تخصني عندكم.

ـ اسمك؟

ـ .. بن ..

ـ نعم.

ـ تعال.. وقّع هنا.

ـ على ماذا؟

ـ وقّع فقط، لا تخف؟

وقعت.

ـ خذ هذا الطرد.

أخذت الطرد ثم ذهبت إلى النقيب وأخبرته بأني تسلمت طرداً قديماً من القسم فقال:

ـ انتهى كل شيء. يمكنك الآن الذهاب إلى منزلك. لا نريد أن نراك هنا مرة أخرى.

ـ بإذن الله يا سعادة النقيب لن تراني إلا في الأفراح والليالي الملاح.

ـ سوف أكلم القائمين على البوابة.

ـ شكراً يا سعادة النقيب.. سعدت بمعرفتكم.

ـ ونحن كذلك. إلى اللقاء.

الطرد

وصلت المنزل وفتحت ذلك الطرد فإذا بداخلة ظرف ممزق وبداخل الظرف الممزق رسالة تحمل في أعلاها صليباً أحمر!

نزلت إلى السطور الأولى من الرسالة وإذا هي من خالد. قرأتها بجنون فظيع وشغف أفظع:

إلى الحبيب الغالي

إلى صاحب الابتسامة الهادئة.. إلى صاحب الرسالة الفريدة الصاحب الذي لم تغيره الأزمان والليالي. إلى صاحب الوفاء والأخوة الحقيقية.. الكلمات تتلعثم والقلم يقف حائراً ماذا يكتب وعمّن يكتب أعتذر لأن المشاعر فياضة. أعتذر لأني.. والله لا أعلم كيف أكتب هذه الرسالة لكن أقول الشوق يلهب قلوبنا وأعيننا وأسماعنا للقائكم ولكن حال بيننا هذا السجن..

أخي الحبيب.. لم أستطع كتابة الاسم لأن المشاعر بدأت تنهمر عليّ. جزاك الله خيراً على تلك الرسالة التاريخية الخالدة في ذكراي. ووالله لم أكن أتوقع أن يراسلني أحد من الشباب في هذا المكان، وكذلك لم أسمع من أحد من الشباب راسله احد أصدقائه. فلك الوسام بأنك صاحب أول رسالة في تاريخ كوبا تصل الشباب من أصدقائهم، فلقد كان لها الأثر العظيم على معنوياتي، وأبشرك لقد قرأها عدد كثير من الشباب وكلهم اثنوا عليك خيراً، بل سألني أحدهم هل صاحب الرسالة ابن عمك أم ابن خالك أو أنه أحد أقربائك؟ فقلت له: لا والله بل هو من أحد الشباب الذين..

فقال لي: عض عليه بالنواجذ.

فوالله لئن أرسل إليك هذا الأخ في هذا المكان وخاطر بنفسه لحري أن يصاحَب. فجزاك الله خيراً وأريد منك أن تسامحني لان الرسالة متأخرة لكن والله العظيم الظروف عندي صعبة للغاية. واعلم أنك في البال دائماً سواء أرسلت رسالة لي أم لا..

فوالله كنت أنا وزياد.. دائماً نتذكرك أنت خاصة ونتذكر مواقفك الطريفة.. بلغ سلامي الشباب ولا ينسوا إخوانهم الأسرى بكوبا من خالص الدعاء.

نعم والله غربة الدين نحسها ونشعر بها.. أما أخباري فأبشرك أنها طيبة والمعنويات عالية بفضل الله، فمن كان مع الله كان الله معه.

خالد القرشي

كوبا/ غوانتاناموا

جنون ١

رسالة منك.. يا للهول! لا أستطيع يا صديقي العزيز أن أصف شعوري تلك اللحظة. أستطيع أن أقول إنه عثور على شيء عظيم مفقود. لقد شعرت بك من الرسالة، شعرت بتلك الكلمات تلهب مشاعري وكأنك أمامي تلفظها وتنظر إلي. يا الله.. كيف قطعت هذه الرسالة تلك القارات وعبرت من فوق المحيط لتصل إليّ وكأنه ضرب من الخيال. وكأنه حلم سعيد أتمنى أن لا ينقطع ولكن هذه هي الحقيقة.. رسالة تحمل صليباً بمضمون إسلامي فريد رائع. هل فعلاً نجحت طائفة توحيد الأديان أو تقارب الأديان في بعض مهامها عندما جاءتني رسالة تحمل الصليب الأحمر القاني فوقها وخطوطاً من المداد الأزرق الهادي في طياتها.. أم أن الإنسانية تمخضت وأنجبت هذه الرسالة؟

قد لا تصدق أني قرأت رسالتك في ذلك اليوم عشرات المرات وكل مرة أخرج بشعورٍ آخر غير الشعور الذي قبله. ووقفت مع

الكلمات التي شطّبتها أثناء كتابتك حتى أعرف ما وراء ذلك التشطيب من حقائق ودقائق قد تفيدني بها.. وبت تلك الليلة ورسالتك الرائعة على صدري نائمة.

* * *

في اليوم التالي علم كل محبيك بوصول رسالة منك فكنت أستقبل الناس زمراً وجماعات. وكلما قرأ شخص الورقة وقع في ظهرها توقيعاً صغيراً متمنياً لك الفرج العاجل. حتى ظننت أن الحبر سوف يسيل من كثرة الموقعين على تلك الورقة الضئيلة المسكينة تلك الرسالة.. لا أبالغ أنها أعطتني باقة من الأمل لكي أنتظرك يا رفيقي.. إني أنتظرك!

جنون٢

لي الآن ما يقارب ثلاثة أشهر كتبت لك فيها عشرات الرسائل، تستطيع أن تقول إن رسالتك أعطتني طاقه هائلة من الأمل لكي أكتب لك كل خمسة أيام رسالة واحدة.. عل واحدة أن تصل إليك. ولكن لم يصل إلى الآن شيء منك، حتى وصل الأمر أني ذهبت إلى المباحث لكي أسأل عن أي رسالة وصلت منك!

ذهني الآن منغلق تماماً عن الكتابة ولا أدري ماذا أكتب. لذا أفضّل أن أنتظر فقط.. ملل..

* * *

في أحد الأيام وكان يوم الخميس، وأسمّيه أنا يوم الخميس الأبيض أو خميس الفرج، وبينما كنت أشتري بعض الظروف لكي أرسل لك بعض الرسائل، لفت نظري وكاد أن يلفت عقلي خبر في الجريدة لأنه أجمل خبر قرأته في حياتي!!

تستطيع أن تقول إني عشقت قراءة الجرائد بعد ذلك الخبر!

قرأت الخبر.. ثم صحت عالياً ورميت بالظروف. رميتها عالياً وتناثرت فوق رؤوس الزبائن. كنت أقفز و(أعرض)(*) وأضحك ضحكة هستيرية وأصرخ:

ـ وداعاً أيتها الظروف وداعاً..

أصبح الجميع ينظرون إلي وكأنهم ينظرون إلى شخص مجنون. فعلاً في تلك اللحظة أيقنت أني جننت.. جننت ولم أفق إلا بعد أيام!.

(*) العرضة: رقصة أهل الجنوب.

تصريح من مصدر مسؤول:

أفرجت السلطات الأميركية عن عدد من المعتقلين السعوديين بغوانتانامو وفي اتصال هاتفي ببعض الأهالي أفادوا بأنه تم إشعارهم من جانب وزارة الداخلية بوصول أبنائهم للمملكة وأنه بإمكانهم زيارتهم. وقد وصل هؤلاء الأسرى إلى العاصمة الرياض صبيحة هذا اليوم الخميس ١٤ ربيع الأول ١٤٢٤هـ كما قام أهالي الأسرى الخمسة بزيارتهم والاطمئنان إلى أوضاعهم النفسية والصحية. ويفيد بعض الأهالي بأن معنويات أبنائهم مطمئنة جداً، وأن أوضاع بقية المعتقلين (النفسية) طيبة للغاية برغم اعتقالهم لمدة تزيد على أربعة عشر شهراً في معتقل غوانتانامو ذي الأوضاع غير الإنسانية، والأسرى الذين وصلوا الرياض هم حالياً في سجن الحائر..

رسالة أخيرة

عزيزي خالد

تحية طيبه.. وبعد:

فقد طلبت أن أراك فأنبئت باستحالة الأمر، ورغم ذلك فلن يعتريني اليأس مهما اختلفت الظروف وتعاقبت الأحداث.

ثم اعلم أن الحياة هي الحياة.. تلك الأماكن التي تعرفها كما هي، إلا أن الصحب والأخيار قد تفرقوا وأصبحوا شذرَ مذرَ.. هنا وهناك أناسٌ في الشمال وآخرون في الجنوب. وهكذا شرقاً وغرباً كلٌّ يسعى وراء عمله ورزقه. وأصبحت ألتفت يمنةً ويسرة بحثاً عن صديقٍ وفيّ ولكن للأسف لم أجد.

أتذكر تلك الأماكن التي كنا نجلس فيها نشرب قهوة، نأكل أكلة نذكر نكتة، نسقط دمعة.. لا زلت ألتفت إليها كلما أمر بها..

وأتذكر أياماً مضت وليالي انقضت.. كنا فيها معاً...

عزيزي.. قد أقول كلاماً غريباً بعض الشيء، ولكن أنا متأكد أنه الحق بعينه.. لا تستعجل الخروج فقد يكون السجن وأيامه التي قضيتها فيه من أحب الأيام وأجملها إليك!

«لعل الأيام تسمح بأن نلتقي يوماً، فاعتن بنفسك وحاول أن تعيش حتى ذلك اللقاء! أجل قد يقدر لنا أن نتعانق ملياً.. وأن نستعيد ذكرياتنا ونستردّ الآمال الحلوة التي اقتلعتها الآن من قلبي الجريح».

١١ أيلول ٢٠٠٦م

تمت

المؤلف

ولد في مدينة جدة عام ١٣٩٨ هـ.

خريج كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

صدر له

- **إيفه** «رواية»، دار المحمدي، جدة ٢٠٠٤م.
- **الصراع الدامي** «رواية»، دار المحمدي، جدة ٢٠٠٥م.



طاهـر أحمـد الزهـراني



«أعلم أن البشر لم يتعودوا هذا النوع من الكتابة لأنهم اعتادوا الكتابة عن المرأة عن ليلى وعزة وجولييت وديانا ونانسي وشاكيرا!!

أصبح الكلام كله عن تقديس المرأة عن الشفاه والخدود والنهود وشعر العانة وشعر الإبط وعن أعمق من ذلك!!

أصبح العالم (سكسي) حتى الحضيض لدرجة أن من يقرأ بعض ما سأكتبه هنا سيظن أن مثلي شاذ (لوطي).. لماذا؟

لأن العالم أصبح قذراً قذراً لدرجة بعيدة!!

سوف أحاول أن أكتب شيئاً جديداً جميلاً بعض الشيء وسوف أتكلم عن المرأة!!»

(من الرواية)

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-288-0
9 789953 212883